مسرحيات عالمية

مركب بلا صياد

أليخاندرو كاسونا

ترجمة وتقديم :
د. محمود علي مكي

المسرح العالمي

شخصيات المسرحية

استيلا	Estela
فريدا	Frida
الخادمة	
إنريكيتا	Enriqueta
ريكاردو خوردان	Ricardo Jordan
الرجل المتشح بالسواد	
العم ماركو	Tio Marko
خوان	Juan
مدير البنك	
عضو مجلس الإدارة (الأول)	
عضو مجلس الإدارة (الثانى)	

هذه المسرحيـــة عرضت لاول مرة على مسرح الليثيو فى بوينـوس ايرس (الارجنتين) فى ٢٤ اغسطس سنة ١٩٤٥ .

الفصل الأول

(مكتب رجل الأعمال ريكاردو خوردان . ترف بارد . على المكتب جهاز تسجيل لأسعار الأوراق المالية . على الجدران خرائط اقتصادية ملونة . أعلام صغيرة مثبتة بدبابيس على مواضع المدن ذات الأسواق الكبرى . أشرطة تمثل طرق المواصلات . كرة أرضية كبيرة . ساعة حائط ذات رقاص . مظهر المكان يدل على أن الجو شتاء .

★ ★ ★

إنريكيتا جالسة . ريكاردو يتقدم فى امتعاض ظاهر للرد على التليفون الذى لايكف جرسه عن الرنين منذ رفع الستار . وبينما هو يتحدث فى التليفون نرى إنريكيتا تصلح من شأن مظهرها وزينتها)

ريكاردو : أهلا ! مسافة طويلة ... ؟ نعم ، نعم ، تكلم ... وهنا أيضاً : انخفضت الأسعار أربع درجات كاملة فى نصف ساعة . ولكنى أكرر لك أنه لامبرر أبداً للقلق . لا .... أما هذا فمستحيل . إن أوامرى

قاطعة نهائية وهى سارية على جميع الأسواق . ليحدث ما يحدث ، فإنى آمركم بالشراء . لا شىء أكثر من ذلك . شكراً (ينزل سماعة التليفون وينظر إلى الجهاز الذى يسجل أسعار الأوراق المالية أولا بأول) .

إنريكيتا : مازالت الأخبار السيئة تتوالى ؟ .

ريكاردو : هكذا يبدو .

إنريكيتا : هل هى بالغة الخطورة ؟ .

ريكاردو : لقد رأيت نفسى فى مواقف أسوأ ، ومع ذلك فقد عرفت كيف أجابه العاصفة . مادمت أعرف من أين تأتى الضربة فإنه من اليسير أن أتجنبها .

إنريكيتا : لو أنك اقتصرت على تجنب الضربات .... ولكنى أعرفك . لست ممن يكتفون بتلقى ضربة إلا إذا كالوا الصاع لضاربها صاعين .

ريكاردو : (مقدماً إليها سيجارة) : نعم ، هذا هو مافعلت دائماً . أتظنين أننى سأجبن الآن ؟ .

إنريكيتا : إنها ليست مسألة شجاعة ، بل أرقام . كم ارتفعت اليوم أسهم « الشركة الكندية » ؟ .

ريكاردو : أربع عشرة درجة كاملة ، أى بنفس النسبة التى هبطت بها أسهمنا .

إنريكيتا : وحتى متى تستطيع أن تتحمل هذا الهبوط ؟

ريكاردو : لا يهمنى الحد الذى يمكن أن يصل إليه . فهو هبوط مصطنع على كل حال . إن اللعبة واضحة : إما « الشركة الكندية » وإما أنا . وسنرى من هو الذى يضحك أخيراً .

إنريكيتا : لا تنس أنه لايهمهم كثيراً مدى ما يصيبهم من خسارة ، فهم لايهدفون إلا إلى تحطيمك أنت . إنها ليست شركة تسعى إلى خدمة مصالحها ، بل هو رجل يحمل لك عميق الكراهية : يوشع مندل .

ريكاردو : يوشع مندل ! ... إنه تلميذ مغرور . إن أول ما خاضه من صفقات قذرة فى حياته إنما تعلمه على يدى أنا . ولسوف أريه كيف يحترم أستاذه .

إنريكيتا : ولكنه هو الذى يتحكم اليوم فى الصناعة والبنوك . إنه يعرف كيف يبتسم فى المجتمعات ، وكيف يظفر بإعجاب النساء .

ريكاردو : نعم ، هاأنذا أرى ذلك .

إنريكيتا : لاتسخر يا ريكاردو . إنها لعبة خطيرة غير مضمونة

العواقب . وعليك أن تقدر أن وراءك هنا أناساً كثيرين ربما جررتهم معك إلى الخراب .

ريكاردو : لست أستطيع إضاعة وقتى فى التفكير فى الآخرين . أتراك خائفة ؟ .

إنريكيتا : نعم ، عليك . إنك رجل مشبوب العاطفة سريع الانفعال . ولا يهمك أن تقامر بحياتك على ورقة واحدة . أما هو فإنه بارد النظرات ، يسير فى بطء وتمهل .... ولكنه يعرف دائماً كيف يصل إلى حيث يريد .

ريكاردو : أمر غريب ... إننى لم أتصورك أبداً إلى هذا الحد من التشاؤم . ما الذى تنصحيننى به إذن ؟ أن أستسلم ؟ .

إنريكيتا : التفاوض والصلح .

ريكاردو : مع مندل ؟ مستحيل . إنه أراد الحرب ، فلتكن له الحرب . وأرجوك أخيراً ... لندع هذا الأمر ، فهو مما لا يليق بك أن تخوضى فيه . لماذا لم تتصلى بى مساء الأمس ؟ .

إنريكيتا : لقد ظننت أنك بعد مثل ذلك اليوم المثقل بالعمل محتاج إلى الراحة ، إنى كنت أتعشى فى الكلاريدج

.... مع بعض الصديقات .

ريكاردو : وهل خلا الكلاريدج من أجهزة التليفون ؟ .

إنريكيتا : لم أرد إيقاظك .

ريكاردو : صدف غريبة ... إن الكلاريدج لم يعجبنى قط فهو المكان الذى اعتادت رفقة مندل على الاجتماع فيـــه .

إنريكيتا : ما الذى تريد التعريض به ؟ .

ريكاردو : لنكن صرحاء يا إنريكيتا . إنك حتى الأمس لم تشاهدى هذا الرجل قط . فمن أين عرفت أن مندل بارد النظرات ؟ .

إنريكيتا : ريكاردو ! ... أتريد الآن أن تمثل مشهداً من مشاهد الغيرة ؟ .

ريكاردو : معذرة .

(يدخل خوان وهو يحمل صينية عليها كأسان وإبريق للكوكتيل وصودا)

(إنريكيتا وريكاردو وخوان)

خوان : بعد إذن السيد .

ريكاردو : من الذى طلب هذا ؟ .

خــوان : لقد سمحت لنفسى بإحضاره ، إذ أننى أعرف أن السيد لم يذق طعماً للنوم منذ ثلاث ليال ... جرب ياسيدى هذا الشراب وستشكرنى عليه . ولكن دون إفراط ، فقد أعددته على صورة تكفى لكى يستغرق شاربه فى النوم وهو واقف .

ريكاردو : شكراً يا خوان .

خــوان : (تاركاً الصينية) : إن مدير البنك واثنين من أعضاء مجلس الإدارة فى الانتظار .

ريكاردو : وكيف حالهما ؟ هادئان ؟ .

خــوان : فى غاية الشحوب والاضطراب . إن السيد مدير البنك قد أشعل ثلاث سجائر ولم يدخن منها واحدة .

ريكاردو : ليدخلوا . (يخرج خوان) إن من الأفضل لك أن تنسحبى إذا لم تكونى تريدين شهود مجلس عاصف .

إنريكيتا : دعهم يتكلمون واضبط أعصابك . إن كل نصيحة فى مثل هذا الموقف قد تكون مجدية . لماذا تنظر إلى هكذا ؟ .

ريكاردو : لا أدرى . إنى أراك اليوم على غير عادتك . ربما كنت متعقلة إلى حد أبعد مما ينبغى . يبدو لى

يا عزيزتى أن هذا هو فعل السن : كلما كبر الإنسان كلما قل إقدامه (يقبلها فى برود) .

إنريكيتا : فكر فى الأمر يا ريكاردو وترو فيه (تخرج . ريكاردو يتابعها بنظره ساهماً مفكراً ، ثم يملأ لنفسه كأساً . خوان يفتح الباب ذا الشراعتين الواقع فى نهاية المسرح ويدخل منه مدير البنك وعضوا مجلس الإدارة) .

(ريكاردو ومدير البنك وعضوا مجلس الإدارة)

ريكاردو : تقدموا ياسادة . هل هناك من جديد ؟ .

العضو الأول : أشياء جديدة أكثر مما يمكن تصوره وفى أقل وقت ممكن . هل رأيت أسعار الأسهم والأوراق المالية وما طرأ عليها من تغيرات ؟ لقد أقفلت البورصة مساء الأمس وقد وصلت أسهمنا إلى ١٨٠ واليوم لم تفتح أبوابها إلا على ١٦٥ . ومنذ هذه اللحظة حتى الآن ....

ريكاردو : نعم ... إنى أعرف : هبطت أسهمنا أربع عشرة درجة أخرى .

العضو الثانى : معذرة ، ١٨ فى هذه اللحظة ، وقد يصل الهبوط

فى نهاية اليوم إلى عشرين ، وربما ثلاثين .

مدير البنك : لقد خرجت من البورصة فى الوقت الذى كان فيه أربعة آلاف سهم أخرى من أسهمنا معروضة للبيع فى الأسواق . وكنت أرى اضطراب السماسرة ووكلاء المضاربات وما أصابهم من جزع ؛ ونحو مائة من صغار المساهمين وهم جماعات تروح وتغدو فى عصبية ظاهرة ، وهم يشاهدون على السبورة الانحدار السريع الذى مضت فيه أسهمهم . لقد كانت الأسعار تتضاءل كما لو كانت قطعة من الدهن تذوب بسرعة تحت أثر النار .

ريكاردو : ومع ذلك فإنى أؤكد لكم أن هذا الانزعاج لا مبرر له ، فهبوط الأسعار مصطنع ليس هناك مايدعو حقيقة إليه .

مدير البنك : ليس هذا انزعاجاً يا سيدى ، بل هو الذعر الأهوج المخبول ! إنك لو رأيت المساهمين هناك لشاهدت قطيعاً استبد الرعب به فأقبلوا يعوون ويصرخون ويتدافعون بالمناكب لكى يتخلصوا من أسهم تهوى إلى الحضيض .

العضو الأول : لو كان مجرد انزعاج لأمكن القضاء عليه بضربة جريئة أما هذا الذعر فما من قوة بشرية تستطيع أن تقاومه .

ريكاردو : ها أنت ذا قد ذكرت الكلمة الوحيدة اللائقة : المقاومة . المقاومة . وإلا فعلى من يعود بالخير هذا الرعب ؟ على « مندل » . وهذا فإنه هو الذى يشجع هذا الرعب بل ويدفع ثمنه . إنه ينتظر حتى تصل أسهمنا إلى الحضيض ، وحينئذ سيتقدم فى هدوء لكى يلتقطها وتؤول شركتنا إليه . ينبغى أن يكون المرء فى غاية الغباوة لكى تغيب عنه مثل هذه اللعبة .

العضو الثانى : معنى ذلك أنك مصر على ألا ترى فى كل هذا إلا مضاربة متعمدة ؟ .

ريكاردو : لقد قمت أنا نفسى بمثل هذه المضاربات من قبل ، وأنا أعرف الوسائل التى تتبع من أجل إحداث هذا الهبوط الفجائى المصطنع فى أسواق الأسهم والسندات : شراء الصحافة ، وناشرو الذعر المأجورون ، والإشاعات التى تبث القلق فى أوساط المساهمين ....

مدير البنك : من سوء الحظ أن كل هذا ليس مجرد إشاعات . فهناك أيضاً حقائق لا مجال للشك فيها . إن الاضرابات مثلا تمتد إلى معامل تكرير البترول ، وهى خطر يهدد بتوقف العمل فيها توقفاً تاماً .

ريكاردو : ليس الأمر مشكلا يستعصى على الحل ، والحل هو شراء زعماء العمال المضربين . يكفى أن ندفع لهم ضعف الثمن الذى عرضه مندل .

مدير البنك : وما الحل فى آبار البترول التى تملكها شركتنا خارج حدود بلادنا ؟ إن الثورة الوطنية التى قامت بقلب نظام الحكم هناك لا تعترف بالمصالح الأجنبية .

العضو الأول : وآبارنا هناك ستصادر ونعوض عنها بالثمن الذى يقدرونه هم .

ريكاردو : هذه دعايات سياسية لا يجرؤ أحد على أن يؤكدها . إن البترول ليس له وطن !

العضو الثانى : ليس هذا مجرد تهديد ، بل هو خبر أكده وكلاؤنا هناك . انظر إلى هذه البرقية .

مدير البنك : (بينما يأخذ ريكاردو البرقية ويقرأها) : حينما سيعرف هذا النبأ فى البورصة فإن أسهمنا لن

تصاب بهبوط جديد ، بل ستسقط سقوطاً عمودياً لا رجعة فيه .

العضو الأول : ينبغى علينا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه قبل أن تكون الفرصة قد أفلتت .

ريكاردو : بالاختصار : ما الذى تقترحونه علىّ ؟ أن نستسلم لمندل ؟ .

العضو الأول : ما زال هناك وقت للتفاوض والاتفاق معه . أما فى الغد فإننا سنكون مكتوفى الأيدى والأقدام .

ريكاردو : اسمعوا ، إن جوابى النهائى على ما تقولون هو هذا : كلا ! وما دمت أنا مدير هذه الشركة فإن أمرى الوحيد هو المقاومة . وبعد ذلك سنوجه ضربتنا .

مدير البنك : وبأى رأسمال ؟ إن البنك الذى أديره لا يستطيع فى مثل هذه الظروف أن يغامر بتقديم قروض جديدة .

ريكاردو : وأنت أيضاً فقدت الثقة فى ؟ .

مدير البنك : ومن الذى يستطيع الثقة فيك إذا كانت أول صرخة فزع قد انطلقت من هذا المكتب نفسه ؟ أتعرف من هو صاحب الأربعة آلاف سهم التى عرضت

للشراء فى هذا الصباح ؟ إنها الآنسة إنريكيتا ، صديقتك أنت ؟

ريكاردو : لا .. هذا غير معقول .

مدير البنك : لقد رأوها أمس تتعشى مع مندل فى كلاريدج .

ريكاردو : إنكم تكذبون . من الذى رآها ؟ .

العضو الأول : أنا ياسيدى المدير .

العضو الثانى : وأنا أيضاً .

ريكاردو : معنى ذلك أنكم كنتم أيضاً هناك ؟ ها أنذا أرى اللعبة بوضوح . السفينة توشك على الغرق ، والفيران تسرع لمغادرتها . أليس كذلك ؟ إذن فلتعلموا قرارى . لا أيها السادة . إنى سأعرف كيف أنتشل السفينة الغارقة مرة أخرى . إذا كان رأس مال الشركة لا يكفى فإننى سوف أواصل الكفاح معتمداً على رأسمالى الخاص ... سأنفقه حتى آخر قرش (يسمع من جديد صوت جهاز تسجيل الأسعار) .

مدير البنك : تروّ فى الأمر وفكر فيه بهدوء أعصاب . إنه يمكن أن يؤدى بك إلى الخراب والإفلاس .

العضو الأول : (بعد أن هرع لمراقبة الأرقام الخارجة من الجهاز) :

انظروا إلى هذه الأرقام . إنه الخراب الكامل .

العضو الثانى : إن المساهمين يطالبون باستقالتك . فهذه هى الوسيلة الوحيدة لإنقاذنا جميعاً .

ريكاردو : كفاكم حديثاً ! ما الذى تنتظرون ؟ اذهبوا بجبنكم وخوفكم إلى مندل فاركعوا بين يديه واستجدوا رحمته . أما أنا فلست أعرف إلا وسيلة واحدة فى الصراع : إما الكل وإما لاشىء هذه هى كلمتى الأخيرة .

مدير البنك : حسناً . ونحن أيضاً سنقول كلمتنا . هيا بنا ! (يخرجون)

ريكاردو : (وحده مهمهماً وهو يصرف على أسنانه من الغيظ) : جبناء ! .. جبناء ! ... وهى أيضاً ! (ثم يتهاوى على كرسى ، ويشرب جرعة أخرى من الكأس فى صمت . يسمع وقع رذاذ المطر . تخفت أضواء المسرح بينما تسمع أصوات موسيقى غريبة على صورة رتيبة تثير الأعصاب . فى هذا الوقت تفتح شراعتا الباب الواقع فى صدر المسرح وحدهما ببطء ودون أن يسمع لهما صوت . ويدخل إلى المكان رجل متشح بالسواد فإذا دخل

الرجل انقفلت شراعتا الباب كما فتحتا فى صمت غامض . الرجل المتشح بالسواد يرتدى بذلة أنيقة : جاكتة ذات ذيلين وسراويل غامقة مخططة مما يلبس فى السهرات أو الحفلات ، وقفاز أسود وتحت إبطه حافظة . الرجل ذو مظهر عادى لا يميز شخصيته إلا وجه تلوح عليه علائم الجرأة وذقن مدببة وابتسامة باردة . يتقدم الرجل فى هدوء ويقترب من ريكاردو فيطل على كتفه ويحدثه فى نبرة توحى بالألفة) .

(ريكاردو والرجل المتشح بالسواد)

الرجـــل : لا تكثر من التفكير فى الأمر يا ريكاردو خوردان. إن عشيقتك قد خانتك ، وأصدقاؤك كذلك . أنت على شفا الإفلاس ، بل ربما كنت على أبواب السجن . وفى مثل هذه الحال ليس هناك من يستطيع إنقاذك إلا شخص واحد : أنا ! ..

(ريكاردو ينظر إلى ما حوله فى دهشة ثم يوجه بصره إلى الرجل المجهول كما لو كان عاجزا حتى ذلك الوقت عن فهم ما يجرى أمامه) .

ريكاردو : (ينهض) : من أنت ؟ .

الرجل : صديق قديم . لقد كنت ترانى فى أحلامك ليالى كثيرة منذ وقت طويل .. حينما كنت طفلا بعد وكان قلبك عامراً بالإيمان .

ريكاردو : يبدو أنى رأيت هذا الوجه مرة من قبل ... لا أدرى أين .

الرجـــل : فى كتاب مصور كان لدى أمك ، كتاب فيه كلام ساذج عن الفردوس وعن الجحيم ... أتذكر ؟. الصفحة الثامنة ... على اليسار .

ريكاردو : (محدا النظر إليه) : فى وسط سحابة من الدخان ؟. وعليك عباءة حمراء وريشة ديك ؟

الرجـــل : نعم ... كان هذا هو الزى التقليدي فى ذلك الوقت. ..ولكن العصور تتقلب وكان ينبغى علينا أن نتطور بالألوان والأزياء ... حتى نجارى العصر !

ريكاردو : (فى لهجة المتشكك) : لا ... هذا غير ممكن .

الرجـــل : بلى ، هو ممكن .

ريكاردو : (فاركا عينيه) : لنكن جادين فى الحديث من فضلك . هل تحاول أن تقنعنى بأننى أتحدث الآن مع ... مع ... ؟ .

الرجـــل : قلها ولا تخف . مع الشيطان بشخصه وذاته .

ريكاردو : إبليس !

الرجل : وهذا اسم آخر لى أيضاً . إن كل أسمائى تصلح لإطلاق صرخات الرعب أو الدهشة !

ريكاردو : (محاولا تمالك نفسه) اسمع أيها السيد الذى لم أتشرف بمعرفته . إننى لا أدرى من أى مستشفى مجاذيب قد هربت ، ولا ما الذى تسعى إليه . ولكنى أود أن أنبهك إلى أنك قد أسأت اختيار الوقت الملائم لمثل هذا المزاح .

الرجل : أسأت اختيار الوقت ؟ لماذا ؟ ألم تكن فى حضيض اليأس حينما دخلت عليك ؟

ريكاردو : أما هذا فنعم ، ولى أن أقسم على ذلك !

الرجل : إذن ؟ .. إننى دائماً أختار لإغواء الرجال ربع الساعة السيء .. ذلك الذى تختارونه أنتم لإغواء النساء .

ريكاردو : ولكن ... ألا ترى أنت سخف هذا الموقف ؟ إنه من المستحيل أن تكون أنت هنا ، حتى ولو اقتنعت أنا بذلك . فالشيطان ليس شخصاً من لحم ودم ، بل هو فكرة مجردة .

الرجل : ومع ذلك فها أنذا أمامك الآن . إن الأفكار المجردة

من أمثالنا تحتاج بين وقت وآخر إلى الخروج ... للترويح عن نفسها .

ريكاردو : هذا مستحيل ! ... شيطان يتجسم فى هذا العصر ! ... وفى هذا المظهر !

الرجل : (وقد بدا عليه كأنما وجهت إليه إهانة ، ناظرا إلى نفسه) : ... هذا المظهر ؟ ...

ريكاردو : عفوا . أريد أن أقول : هذا المظهر الذى يميز صغار البورجوازيين ... من أهل المدن الصغرى.

الرجل : سأشرح لك جلية الأمر : إن هناك ثلاثة أنواع متميزة من الشياطين ، تختلف باختلاف أنواع الأرواح : هناك نوع أرستقراطى رقيق ناعم ، هذا متخصص فى إغواء الملوك والأولياء والقديسين ، ونوع ثان عاطفى شعبى للشعراء وأهل الريف . أما أنا فمن النوع المتخصص فى أفراد الطبقة الوسطى .

ريكاردو : آه ... الآن أفهم سر هذه الملابس وحافظة الورق التى تحملها . ألا ترى فى هذا إسرافاً فى تقمص الشخصية وتكلفا فى الظهور بالمظهر الطبيعى ؟.

الرجل : إن المظهر الطبيعى دائماً أمر مرغوب فيه ، حتى

في الأشياء الخارقة للطبيعة . عن إذنك (يجلس في هدوء ويصب لنفسه كأساً من الشراب) .

ريكاردو : اسمع ... كفانا مزاحاً سخيفاً لا طائل من ورائه . إما أن تخرج الآن ، وإما أن آمر بطردك إلى الشارع .

الرجـــل : أعتقد أنك ستضيع وقتك سدى . ولكن جرب على أى حال . (يصب فى كأسه بعض الصودا ، ريكاردو يدق الجرس ، ولكن لا يسمع صوت رنين ، ثم يحاول الحديث بالتليفون ، فيخاطبه الرجل دون أن ينظر إليه) لا فائدة ، الجرس لن يرن ، ولا التليفون .

ريكارديو : (صائحاً فى صوت مرتفع) : خوان ! ... خوان ! ...

الرجـــل : لا تتعب نفسك. طالما أنا هنا لن يتحرك أحد ، ولن يسمع إنسان صوتك ، حتى الوقت نفسه سيجمد على الساعات (ريكاردو ينظر إلى ساعة الحائط فيجد رقاصها قد توقف عن الحركة) .

ريكاردو : ولكن ... إذن هذه حقيقة ! لست فى حلم ؟ .

الرجـــل : ستقتنع عما قريب بكل شيء . اجلس فى هدوء ولنتحدث كما يتحدث الأصدقاء الخالصون .

ريكاردو : أما هذا الذى تقوله عن الأصدقاء ...

الرجـل : لاتكن متواضعاً . اجلس .

ريكاردو : مادمت لا أجد لنفسى حيلة أخرى ... (يجلس ويخرج علبة سجائره ويقدمها إليه) سيجارة ؟

الرجـل : شكراً . إن الدخان يؤذينى .

ريكاردو : (مشعلا سيجارته) : حسناً ، وهل بوسعى أن أعرف سبب مجيئك ؟ .

الرجـل : لقد كنت ماراً بالبورصة ، حيث الكثيرون من عملائى ، وهناك عرفت ما أنت فيه ، فجئت أعرض عليك عرضاً ... بطبيعة الحال هو عرض روحى .

ريكاردو : لقد كنت دائماً عاطفياً !

الرجـل : نعم ، دائماً . هذا هو ما كتب على . فبينما أنتم لا تهتمون إلا بالماديات والاقتصاد إذا بى أنا مشتغل بالروح لا أتجاوزها إلى غيرها .

ريكاردو : وهل تعتقد أن روحى تستحق هذا العناء ؟

الرجل : فى الحالة التى أنت عليها نعم . إنها تجربة .

ريكاردو : لست أظن إغواء مثل روحى يكلفك كثيراً من

المشقة ، فلا بد أن هذه الروح المسكينة قد شبعت غواية منذ زمن بعيد .

الرجـل : (يخرج بطاقة من حافظته ويقرأ) : نعم . هذا صحيح ، فروحك كما أرى مما هو مسجل فى بطاقتك هنا قد أوشكت على أن يحكم عليها بالهلاك ولكن هناك دفعة واحدة باقية .... الدفعة الأخيرة !

ريكاردو : هذا خبر سار على كل حال !

الرجـل : إن بطاقتك حافلة فعلا بالخيانات والشرور والفضائح والأضرار . حتى الألم الإنسانى لم يهز قلبك مرة واحدة ، إنك لم تحافظ أبداً على يمين أقسمت ، ولم تحترم امرأة غيرك . أما ما أوصيت به من عدم اشتهاء مال الآخرين فأظن أن من الخير ألا نخوض فيه . أليس كذلك ؟

ريكاردو : نعم ، حقاً ، وإلا لكان حديثاً طويلا لا نهاية له :

الرجـل : فى كلمة واحدة : كل ما أمرك القانون باحترامه ضربت به عرض الحائط ، وكل ما حرمه عليك فعلته . لم يبق من الوصايا التى أمرت بها إلا وصية واحدة لم تخرقها بعد : ألا تقتل .

ريكاردو : (فى انزعاج وهو يهب واقفاً) : وهل جئت لتعرض على ارتكاب جريمة قتل ؟

الرجـــل : بالضبط . هو الشىء الوحيد الناقص فى بطاقتك . أنا أدعوك إلى أن تجرؤ على إكمال بنود هذه البطاقة وأعدك فى مقابل ذلك بأن تعود إلى يديك أزمة القوة والمال التى فقدتها الآن .

ريكاردو : لا ، شكرا . قد أكون بلغت دركا سحيقا من النذالة ، لا أنكر ذلك . ولكن ... جريمة قتل ؟ هذا كثير !

الرجـــل : أأنت واثق من أنك لم ترتكب جريمة قتل من قبل ؟ إن هناك جرائم لايسفك فيها دم ، ولانص عليها فى القوانين .

ريكاردو : مثلا ؟ .

الرجل : (يعود إلى مراجعة البطاقة من جديد) : مثلا حينما كنت طفلا فقيراً كنت تتجول على أرصفة الميناء باحثاً عن موزة فاسدة لكى تسد بها جوعك . وبعد ذلك بثلاثين سنة أصبحت تلقى فى مياه البحر بمئات من العربات الكاملة من الموز حتى ترفع سعره . أى اسم يمكن أن يطلقه على

هذا العمل أولئك الأطفال الجياع الذين مازالوا يتجولون على أرصفة الميناء ؟

ريكاردو : إنى لم أكن أستطيع الوقوف عند العاطفيات ، فالقلب ناصح مفسد لصفقات رجال الأعمال .

الرجـــل : أوافقك على هذا . فلندع العواطف إذن لنباشر عملنا على الأرقام ، فهذا هو الميدان الذى تحسنه أنت . (يعود إلى النظر فى البطاقة) إن مؤسستك يعمل فيها ثلاثة آلاف رجل لا يستنشقون كل يوم إلا غاز المناجم ودخان المعامل ، وتدل الإحصائيات على أنهم يموتون من أجل ذلك فى سن تقل بخمس سنوات عن مستوى السن الطبيعية التى يموت فيها الرجل الذى يعيش فى ظروف عادية . فإذا أجرينا حساب ثلاثة آلاف رجل فى خمس سنوات تبين لنا أنك قصرت عمر البشرية مائة وخمسين قرناً من الزمان . رقم جميل . أليس كذلك ؟ . ... ولا تاريخ الحضارة البشرية نفسها قد بلغ هذا الرقم .

ريكاردو : ولكن الذنب فى هذا ليس ذنبى . فأنا لم أخترع هذا النظام من العمل .

الرجل : بلى ، لم تخترعه ، ولكنك تعيش فى ترف هادىء البال بفضله . وهذا غير الذين يصابون بالسعال وهم فى غضاضة الشباب بفضلك أنت ، والذين يجىء أولادهم مشوهى الخلقة مهزولى الأجساد بفضلك أنت ، والذين يصلون إلى سن الشيخوخة قبل الأوان لما يصيبهم من العاهات ...

ريكاردو : (مقاطعاً) : إن لدينا من أجلهم أحسن مستشفيات البلاد .

الرجل : نعم . هذا هو ما فعلتموه دائماً : أولا تصنعون المرضى ، ثم بعد ذلك تصنعون المستشفيات .

ريكاردو : مهلا . لنتفاهم أولا : أجئت لكى تغوى روحى أم لتلقى علىّ درساً فى الأخلاق . ؟

الرجل : إننى لم أعرف أبدا كيف أفعل هذا دون ذاك .

ريكاردو : كان ينبغى عليك أن تشعر بالخجل ، إذ لو كنت شيطانا جادا مقدرا لواجبات عمله لما أتيتنى بهذه المواعظ القديمة البالية ولكنت فخورا بى .

الرجل : ومن الذى أنكر أننى فخور بك ؟ إن كل مافعلته حتى الآن يبدو لى كاملا لاتشوبه شائبة .

ريكاردو : آه ، ولكن هذه الشرور التي تتهمني بها لست أنا المسؤول وحدى عنها . نحن المشتركين فيها كثيرون ، وعلينا جميعا تقع التبعة .

الرجل : فى هذا لايخلو كلامك من صواب . ولو أنى استخدمت عباراتك لقلت إنها «جرائم مجهولة الفاعل محدودة التبعة» .

ريكادو : بالضبط .

الرجل : ومن أجل هذا أتيت لكى أقترح عليك ارتكاب جريمة لايشاركك فى تبعتها أحد ، جريمة تكون أنت المسئول الوحيد عنها .

ريكاردو : لاجدوى من مواصلة النقاش . فأنا لن أقتل ! لن أقتل !

الرجل : خفض عليك . إن رجلا انتهازيا مثلك لايرفض صفقة دون أن يسمع الشروط .

ريكاردو : مهما كانت الشروط مغرية . فإن هز الأكتاف فى غير مبالاة إزاء ما يصيب الآخرين شىء ، وارتكاب جريمة قتل بيدى شىء آخر مختلف كل الاختلاف .

الرجل : وإذا كنت تستطيع ارتكابها دون أن تستخدم يديك ؟ .

ريكاردو : ما الذى تعنيه بذلك ؟

الرجل : أنه لا يهمنى العمل المحسوس المادي . بل تكفينى النية المعنوية ... ضع أنت نية القتل وسأتكفل أنا بالباقى .

ريكاردو : لست واثقا فى هذا الكلام . فإن كل صفقة تبدو من السهولة إلى هذا الحد لابد أن تكون مريبة .

الرجل : آه ! ها أنت ذا قد بدأت ترى الأمر سهلا .

ريكاردو : وهل هناك من يرى غير ذلك ؟ إذا كانت الضحية ستقع بعيدا عنى بحيث لايقتضى الأمر أن أراها فما الذى يهمنى ؟

الرجل : هذا هو الذى كنت أتوقعه . إن الذى يؤلمه مايعانيه الآخرون فلا بد له أن يكون ذا خيال يستطيع أن يتصور الألم . وليس لديك أنت مثل هذا الخيال . بوسعك أن تكون مطمئنا إذن من هذه الناحية . إنها صفقة نظيفة .

ريكاردو : بلا دماء ؟ .

الرجل : بلا دماء . قبلت إذن ؟ .

ريكاردو : إن العرض مغر حقا . ولكن من الذى يضمن لى وفاءك بما تعد .

الرجل : إننى لم أخن عهدا قط . وأنا أعدك بأنه لن يعرف أحد بما تم بيننا ، ولن تقع تحت طائلة العقاب من أى قانون بشرى .

ريكاردو : يقال إن المجرمين يحلمون دائما بضحاياهم .

الرجل : أما أنت فلا . بل ليس من الضرورى أن تعرف هذه الضحية . يمكنك أن تختار أى رجل فى أى مكان فى العالم . وكلما كان بعيدا كلما كان خيرا . مثلا ... (ينهض من مقعده ويخلع عنه قفازه ويضعه على المكتب ، ثم يتوجه إلى الكرة الأرضية فيديرها بإصبعه ، ثم يوقف دورانها ويضع إصبعه على مكان فيها عفوا) هنا ، فى مكان بعيد تفصلنا عنه بحار ومحيطات قرية صغيرة أهلها من صيادى السمك تطل على بحر الشمال . هل ذهبت إلى هناك فى حياتك ؟ .

ريكاردو : أبدا .

الرجل : هذا أفضل . فمعرفة القطر تكاد تعنى التعرف على أهله . والآن ابذل جهدا عقليا وانبعى

بتفكيرك . (الضوء يخفت بالتدريج حتى تتسلط الإضاءة فقط على شخصى ريكاردو والرجل وهما محيطان بالكرة الارضية) انظر . ها هو الظلام قد خيم على القرية . وهناك يرى «بيتر أندرسون» ، صياد مثل مئات غيره من الصيادين ، إنه الآن يصعد تلك الربوة فى طريقه الى بيته المطل على البحر . الريح تهب فى عنف . ألا تسمع صفيرها ؟ (يسمع صوت صفير غامض بعيد فى أول الامر ، ثم يشتد الصفير ويقترب بالتدريج) .

ريكاردو : لا أدرى ... إنه شىء أشبه ما يكون بطنين ملح فى أذنى .

الرجل : ركز التفكير ... إن «بيتر اندرسون» قد اشترى اليوم مركبا جديدا ، وهو يصعد الربوة مرحا سعيدا وعلى شفتيه أغنية قديمة ... ألا تسمع ؟ (يسمع صوت أغنية قادما من بعيد ثم يتضح الصوت ويرتفع شيئا فشيئا . موسيقى اكورديون)

ريكاردو : نعم ... إن الصوت يدنو قليلا قليلا . أليس الأمر وهما منى ؟

الرجل : لا . ليس وهما . الواقع هو أن روحك الآن هناك . إن « بيتر أندرسون » قد شرب قليلا من « الويسكى » ... والمنحدر الذى يصعده فى طريقه إلى بيته صخرى كثير المزالق ... والريح الشديدة العاصفة من القوة بحيث يمكن أن تقتلع رجلا من على ظهر الارض . وغداً عندما يجدون جثة الرجل فى سفح الربوة فإن الجميع سيظنون أن الريح هى التى ألقت به . (لحظة صمت . تسمع الأغنية عن قرب بوضوح وكذلك صفير الريح العنيفة) . ما الذى تنتظر ؟ لم يبق إلا قليل من قوة الإرادة ، وبعد ذلك سيعود إلى يديك كل مافقدت من ثروة وقوة مرة واحدة . إذا لم يكفك هذا فإنى أستطيع أن أقدم لك أيضاً إفلاس مندل وخرابه . ما الذى تنتظر ؟

ريكاردو : لا أدرى ... لست قادرا ...

الرجل : ينبغى أن تفعل ... وفى نفس هذه اللحظة بينما يتجه بيتر اندرسون فى منعرج الطريق أغمض عينيك ياريكاردو خوردان . إنها لحظة واحدة .

ريكاردو : (مخفضا صوته) : وما الذى على أن أفعل ؟

الرجل : (واضعا عقد الاتفاق على المائدة) : يكفى أن تضع توقيعك هنا (ريكاردو يغمس الريشة فى المداد ثم يتردد قليلا . تزداد شدة صوت الأغنية وصفير الريح . الرجل المتشح بالسواد ينصت فى تأثر مسرحى يبدو فيه التصنع) . وهناك فى نهاية الطريق الصاعد إلى الربوة نافذة مضاءة . بيتر يرفع الآن يده ملوحا بالتحية ... وقع الآن ! إنها اللحظة المنشودة ! (ريكارد ويوقع ، وحينئذ تسمع صرخة شديدة تطلقها امرأة كما لو كانت خارجة من داخل الكرة الارضية)

صرخة : — بيتر ! (الأغنية تتوقف فجأة و كذلك صفير الريح فى نفس الوقت ... صمت مطبق).

رجل : مسكين بيتر أندرسون ! ...

يكاردو : (بصوت متهالك لايكاد يبين وهو مأخوذ) : انتهى الأمر ؟ !

رجل : انتهى . أترى مدى سهولته ؟ لقد كانت لفحة عنيفة من ريح سوداء على الربوة الصخرية . ونهاية صياد . شىء يتكرر كل يوم . (يحتفظ

بعقد الاتفاق) أما عن أعمالك فستتلقى قريبا أنباء طيبة ستسرك . تهانى الخالصة .

(يستعد للخروج)

ريكاردو : انتظر ... من الذى أطلق تلك الصرخة ؟

الرجل : وماذا يهمك من ذلك ؟

ريكاردو : إن بيتر لم يكن وحده . لقد سمعت الصرخة جلية واضحة ، كانت صرخة امرأة .

الرجل : لا تكثر السؤال ، فكلما قل ما تعرف كلما كان خيرا لك .

ريكاردو : ولكن ... هذه الصرخة ! ... لو أننى على الأقل لم أسمعها ! ..

الرجل : (فى سخرية) أو سنبدأ من جديد ؟ ... لا تعد إلى التفكير فيها وأذكرك قبل كل شىء بكلماتك أنت : « القلب ناصح مفسد لصفقات رجال الأعمال » (يتجه إلى الباب فإذا وصل إلى هناك التفت وعلى شفتيه ابتسامة غامضة) على كل حال ... مسكين بيتر أندرسون . أليس كذلك ؟ لقد كان صوته يرتفع بالغناء كأنه عاشق ... وكانت تبدو عليه السعادة (ينحنى فى أدب

مودعا) شكرا جزيلا (الباب يفتح دون أن يلمسه فى صمت كما حدث عندما دخل ، ثم ينقفل من ورائه على نفس الصورة . يعود المسرح إلى إضاءته الطبيعية . ريكاردو يتأمل فى حيرة وذهول ملح «مكان الجريمة» على سطح الكرة الارضية . ثم يتمالك نفسه ويفرك عينيه أخيرا كما لو كان قد أفاق من حلم . ينظر إلى الساعة فيرى الرقاص يتحرك حركة عادية طبيعية) .

ريكاردو : هذا غير ممكن . حتى ولو كنت رأيته بعينى . مستحيل ... (يضغط الجرس فى نفاد صبر وينادى فى نفس الوقت) خوان ! ... خوان !.. (خوان يفتح الباب ويطل منه) أوقف هذا الرجل ... وأحضره إلى مرة أخرى .

(خوان وريكاردو)

خوان : أى رجل ياسيدى ؟

ريكاردو : ينبغى أن تكون قد التقيت به فى طريقك . فإنه خرج لتوه من حيث دخلت .

خوان : هذا مستحيل . لقد كنت جالسا كعادتى دائما فى القاعة المؤدية إلى المكتب .

ريكاردو : ولم تره ؟ رجل يرتدى السواد ومعه حافظة أوراق .

خوان : أقسم لك على أنه لم يدخل من هذا الباب ولم يخرج منه أحد على الاطلاق .

ريكاردو : أتريد أن توحى إلى بأننى قد جننت ؟ وصفير الريح .... ألم تسمعه ؟

خوان : ريح ؟ ... إن الحديقة ساكنة لاتتحرك فيها ورقة شجر واحدة .

ريكاردو : والأغنية ؟ وتلك الصيحة ؟ ... صرخة امرأة ؟ فى نفس الوقت ...

خوان : (ينظر فى تشكك إلى إبريق الكوكتيل) : إذا سمح لى السيد أن أوجه إليه نصيحة فإنى أرى من الخير أن يأخذ قسطا من النوم . فقد كنت نبهتك من قبل إلى أن الشراب الذى أعددته من القوة بحيث يكفى للاستغراق فى النوم وأنت واقف .

ريكاردو : ليته لم يكن إلا حلما ! ولكنى رأيته فى وضوح

لم أتعوده فى الأحلام ... (لحظة صمت) قل لى ياخوان . أتؤمن بوجود الشيطان ؟

خوان : (كأنما أهينت كرامته) : أعتقد أنه ليس من حق السيد أن يوجه إلى مثل هذا السؤال . إن حرية العقيدة مكفولة للجميع فى الدستور .

ريكاردو : معذرة . لم أقصد الاساءة إلى ما تؤمن به من عقائد . (مستغرقا فى التفكير) على كل حال هو شيء غريب ... بالغ الغرابة ! ...

خوان : ولماذا يبدو غريبا ؟ إن السيد لم يذق طعم النوم منذ ثلاث ليال . وهذا قد أتلف أعصابه . فضلا عن كأسين من هذا الشراب القوى .

ريكاردو : كأسين ؟ ومن أين تؤكد أننى كنت أنا شارب الكأسين ؟

خوان : (رافعا الكأسين فى يديه ومتأملا إياهما) : لو كانت الآنسة هى التى شربت الكأس الأخرى لتركت على حوافيها أثرا من أحمر الشفاه . إن لى تجاربى ياسيدى ولو أنها متواضعة .

ريكاردو : أسوأ ما فى الامر أنى لا أذكر إلا أننى شربت الكأس الأولى .

خوان : لا تنزعج ياسيدى . فالمعتاد هو أن المرء لا يشرب الكأس الأولى حتى ينسى ما يليها .

ريكاردو : لعلك على حق . فكل شيء يمكن أن تفسره قوانين الطبيعة . ثم إن ما أتصور أنه حدث يبدو أمراً من السخف والاستحالة أن يقع ... هو شيء لم يعد يستساغ فى هذا العصر الذى نعيش فيه (يتنفس الصعداء كمن ألقى عن نفسه عبئا ثقيلا) ... شكرا ياخوان . إنك لا تعرف مدى ثقل العبء الذى أزحته عن صدرى !

خوان : لست أستحق شكرا على شيء . إننى أعرف عملى ولى تجاربى فيه لا أكثر ولا أقل . (يرفع الكأسين والإبريق ويضع الجميع على الصينية . ريكاردو يهم بإشعال سيجارة) هذا القفاز ... هو للسيد ؟

ريكاردو : (يلتفت فى جزع وتتولاه الحيرة من جديد . يلقى بالسيجارة) قفاز أسود ؟ (يمسك به وينظر إليه فى تدقيق) بالضبط ! أخيراً هاهو هذا أثر من آثار الحقيقة . ما الذى تقول الآن فيه ؟ إنك حينما تحلم بشجرة تفاح فإنك عندما تستيقظ لا تجد بين يديك تفاحة . أليس كذلك ؟

خـوان : لا ... ليس هذا هو المعتاد يا سيدى .

ريكاردو : إذن فها هى ذى التفاحة بين أيدينا . إذا كان هذا القفاز الذى ينظر إليه كلانا حقيقة فمعنى ذلك أن اليدين اللتين كانتا فيه حقيقة أيضاً ، وكذلك الرجل صاحب اليدين .

خـوان : (فى قلق) هل حدث للسيد شىء ؟

ريكاردو : لا ... لاشىء مما يمكن أن يصل إليه فهمك . إن ماحدث هنا لغز غامض . والألغاز الغامضة لم يحسب حسابها فى الدستور (يدق جرس التليفون) يمكنك الانصراف . (يخرج خوان وهو يهز رأسه فى رثاء وإشفاق . ريكاردو يرفع سماعة التليفون) . أهلا ! نعم ، أنا نفسى . تكلم ... هكذا ؟ نعم ، نعم . كان هذا هو ما أتوقعه ولكن ليس بهذه السرعة . أجلوا الشراء حتى تتلقوا أوامر جديدة . شكراً (ينظر إلى الشريط الخارج من جهاز تسجيل الأسعار الذى يبدأ الحركة من جديد فى هذه اللحظة . يجلس على مقعد فى تهالك . تدخل إنريكيتا مشرقة باسمة)

(ريكاردو وإنريكيتا)

إنريكيتا ريكاردو ! ما أشد فرحى بأنى أجدك وحدك لقد أتيت أجرى فقد كنت أود أن أكون أول من يبلغك بالأخبار .

ريكاردو : (فى برود) : أننى انتصرت ؟ لقد كنت أعرف، ولو لم أعرف لكفانى أن أراك هنا مرة أخرى لكى أفهم كل شىء .

إنريكيتا : هل أخبروك إذن ؟

ريكاردو : نعم لقد حدث انقلاب كامل فى أسعار البورصة ، وأسهمنا ترتفع الآن فى سرعة أشد بكثير من تلك التى كانت تهبط بها .

إنريكيتا : آه لو كنت رأيت المشهد هناك ! ... لقد كان حقاً من أكثر المشاهد إثارة .... وكل شىء تم فجأة فى لحظات .... كما لو كانت صاعقة كهربائية تحدرت من الجو ... شىء يحمل المرء على أن يؤمن بالمعجزات !

ريكاردو : يدهشنى منك هذا السرور . إذا كنت قد ضاربت على أسهمك بائعة إياها بينما كنت أنا أشترى فأحرى بك أن تعتبرى كل هذا خبراً سيئاً بالنسبة لك !

إنريكيتا : أظن أنك لن تعاتبنى لأنى شعرت بالخوف . لقد

أقنعونى بأنك على حافة الخراب ، ولهذا فقد حاولت أن أستنقذ ما يمكن استنقاذه لا من أجلى أنا ، بل من أجلنا نحن الاثنين .

ريكاردو : ياللك من كريمة ! ... ولكن ... من كان هذان الاثنان ؟

إنريكيتا : إني أقسم لك أننى لم أفعل ذلك إلا من أجلك أنت... أنت وحدك !

ريكاردو : شكرا يا عزيزتى . هذا هو ما كنت أنتظره منك . ولكنى أنصحك بألا تكونى قليلة الصبر مع « الآخر » كما كنت معى . فإنه من الحكمة أن ينتظر موت الدب قبل أن يتفق على توزيع جلده . فى الشارع ستجدين السيارة . إنها آخر هدية أهديها إليك .

إنريكيتا : أأفهم من ذلك أنك تطردنى إلى الشارع ؟

ريكاردو : لا ، بل أتركك فى المكان الذى التقطتك منه . أبلغى تحياتى إلى مندل !

(ريكاردو وإنريكيتا وعضوا مجلس الإدارة الأول والثانى اللذان يدخلان فى هذه اللحظة من بابين مختلفين ، وبعدهما بقليل مدير البنك)

العضو الأول : ياسيد خوردان !

العضو الثانى : ياسيد خوردان !

ريكاردو : بلا استعجال أيها السادة . أخبار عظيمة . أليس كذلك ؟

العضو الأول : رائعة ! آبارنا فى الجنوب قد تم إنقاذها .

العضو الثانى : وأزمة معامل تكرير البترول قد انتهت . ولجنة الإضراب سحبت كل مطالبها .

العضو الأول : وارتفاع الأسعار يمضى على صورة تورث الدوار ، والأرقام تتصاعد كأنها حمى .

ريكاردو : هذا فقط ؟ إنه ليس إلا الجزء الأول ، فهناك شيء أروع من كل هذا ينبغى أن يقع الآن .
(ينظر إلى مدير البنك وهو يدخل مسرعاً فى انفعال شديد وهو يحرك برقية فى يده فى فرح) .

مدير البنك : شيء لا يكاد يصدق !

ريكاردو : لعل هذا هو الذى أقول إنه سيقع .

مدير البنك : برقية عاجلة : آبار البترول التى يملكها مندل يشتعل فيها الحريق .

العضو الأول : عظيم ! يجب أن ننشر هذا الخبر فى الحال ... على صورة استثنائية .... استثنائية .

مدير البنك : اسمح لى بأن أهنئك . إن مثل هذه اللعبة لا يستطيع تدبيرها وإحكامها إلا عقل عبقرى مثل عقلك .

ريكاردو : شكراً أيها السادة ، شكراً . لم أكن أنتظر منكم غير هذا . (يتجاهل يد مدير البنك الذى تقدم لتهنئته) والآن .... ما الذى أتيتم تنشدونه هنا ؟ كلكم فى شجاعة وبطولة جئتم لتساعدوا المنتصر ؟

مدير البنك : لقد كنت دائماً قوى الثقة فيك .

العضو الأول : إننا لم نفعل أكثر من محاولة إسداء النصيحة إليك .

ريكاردو : لا تخشوا على ما أنتم قلقون عليه من فتات ! إن عجلة الحظ قد دارت وليس هناك من يستطيع إيقافها . ولكن ... هل فى العالم كله مال يكفى لإزالة هذه البقعة من الدماء ؟

إنريكيتا : أين ؟ !

مدير البنك : أين ؟

ريكاردو : هناك ، ... على شاطىء من الشطآن ، فى قرية من القرى . غدا ستحوم أسراب من طيور الماء حول المكان لافتة الأنظار إليه ، وربما كان أول من يكشف عن الجسد الميت طفلاً صغيراً ....

(الجميع يتبادلون النظرات فى دهشة وحيرة)

إنى أسائلكم أنتم يامن تشترون وتبيعون كل شيء : بكم يستطيع المرء أن ينزع من أذنيه صرخة مذعورة أطلقتها امرأة ؟ أى نهر من الذهب يستطيع أن يعيد النور إلى هذه العيون الزرق التى جمدت فيها النجوم من برد الموت ؟

إنريكيتا : ريكاردو !

مدير البنك : (يسكتها بصوت خفيض) : اهدئى .... إنه توتر الأعصاب ....

ريكاردو : ما الذى تنتظرون ؟ ألا تدركون أن ما أريده الآن هو أن أخلو إلى نفسى .... دعونى وحيداً ! .... وحيداً ! .... (مدير البنك يقود إنريكيتا من ذراعها فى طريق الخروج ، يخرج الجميع . من جديد يسمع صوت الريح ويشتد قليلا قليلا . ريكاردو يدير الكرة الأرضية فى حركة عصبية سريعة) هذه الريح ! .... هذه الريح ! ... لو أننى استطعت تجنب سماع حفيفها ولو لحظة واحدة (يتهالك على مقعد ، من حوله تسمع أصوات مختلفة رتيبة تتكرر فى إلحاح كما لو كانت تملأ عليه أذنيه) .

أصـوات : بيتر أندرسون ! .... بيتر ! .... بيتر أندرسون !

(من جديد تسمع صرخة المرأة . الكرة الأرضية

تستمر فى الدوران) .

ستار

الفصل الثانى

(تدور حوادث هذا الفصل بعد الفصل الأول بزمن يقرب من سنتين . بيت متواضع من بيوت صيادى السمك الذين يسكنون أحد الشواطىء الشمالية . يرى مجداف مثبت فى أعلى الباب وشباك صيد معلقة فى الشرفات . يرى على الحائط رف قد صفت عليه نماذج صغيرة لمراكب صيد بعضها قد انتهى العمل فيه والبعض الآخر لم يفرغ منه بعد ، وهى موضوعة فى زجاجات أو أوعية من الزجاج . فى الوسط مائدة للطعام خشنة المظهر ، ومن ورائها صوان قد رصت عليه أطباق وطواقم شوك وملاعق وسكاكين . موقد من الحديد أو مدفأة حطب . من إحدى ناحيتى المسرح مدخل يؤدى إلى المطبخ ومن الناحية الأخرى يرى بعض سلالم الدرج النازل إلى الباب الخارجى الذى يطل على الحديقة . من النافذة والباب الواقعين فى قاع المسرح والمواجهين للجمهور ترى ربوة مرتفعة مطلة على البحر ، وكذلك معالم فنار بحرى فى الأفق البعيد الإضاءة تدل على أن الوقت قرب الغروب) .

(الجدة وحدها تعد المائدة وترى مادّة مفرش الطعام عليها ، وهى فى أثناء ذلك تفكر وتحدث نفسها فى صوت مرتفع)

(الجدة وحدها أولا ثم مع فريدا)

الجـدة : مفرش لتناول الغداء ، ومفرش لتناول العشاء ، وحينما يتم تطبيق المفرش يبدأ فتح ملاءات السرير ، فإذا طبقت الملاءات كان علينا أن نعود إلى المفارش . والصمت المطبق خلال ذلك كله . والآن علينا أن نضع الطبقين .. ثم طاقمى الأكل . بالأمس كانا اثنين فقط ، وكذلك أول أمس .... وهكذا إلى الأبد . حينما كنا ثلاثة على المائدة كان البيت يعج بالأصوات وكان الحديث يدور عن الغد .... الغد ! كان النبيذ ينسكب أحياناً على المائدة وكنا نتضاحك ملقين عليه الملح . ولكن منذ أصبح أمامنا طبقان فإن المائدة تبدو كبيرة هائلة الاتساع ... إن الذى ينقصها هو طبق الرجل . . . ومتى نقص طبق الرجل لم تعد هناك ضحكات ولا نبيذ .. ولا غد . امرأتان وحيدتان ولا أكثر من ذلك . المفرش البارد والملاءة الباردة ..

والصمت . ملعونة ! ... ملعونة هى الدار التى لاتضم إلا نساءاً وحيدات ! (تظهر فريدا على الباب قبل أن تتم الجدة كلماتها فتنصت إلى عباراتها الأخيرة فى دهشة ثم تناديها)

فريدا : جدتى ! ....

الجدة : أنت ؟ ما أسعد عينين اكتحلتا برؤيتك ! لقد كنت أظن أنك نسيت الطريق إلى هذا البيت .

فريدا : لقد سمعت صوتك من الخارج ولكنى لم أجرؤ على الدخول فقد كنت أظنك تتحدثين مع أحد .

الجدة : كنت أحدث نفسى . والحمد لله . إذ يبدو أنه لم يعد أحد يحتملنى إلا أنا نفسى .

فريدا : وإذ سمعتك تتحدثين بصوت مرتفع ....

الجدة : وما الذي تريدينى أن أفعل بكل هذه الكلمات التى تحرقنى هنا ؟ أأبتلعها ؟ لا ... لتذهب مع الريح حتى ولو لم يسمعها أحد ... فالكلمات التى لاتقال لاتلبث أن تتعفن هنا فى داخل الصدور ، وهذا أسوأ (تواصل إعدادها للمائدة . فريدا تساعدها) . . وزوجك ؟

فريدا : فى البيت .... منصرف إلى عمله .

الخير ألا تدعيه وحده بقدر ما تستطيعين . إن
الجدة : كريستيان قد اعتاد الإسراف فى الشراب فى هذه
الأيام . فكونى على حذر . والطفل ؟

بدا : بخير .

الجدة : بخير ! ... بخير ! ... أهذا هو كل ما يفتح الله به
عليك وأنت تتكلمين عن ابن لك ؟ ألا يربط علباً
وصفائح إلى ذيل القط ؟ ألا يثير الضوضاء وهو
يحك صندله الخشبى على سطح البلاط ؟ ألا يقلب
قدور النحاس المملوءة بالماء الساخن ؟ ألا يلقى الأحجار
على طيور الماء ؟ ... أبداً ! ... إلى هذا الحد من
الخمول والتبلد بلغنا ! إن أبناء أحفادى يقتصرون
على أن يكونوا « بخير » ... وانتهى الأمر .

بدا : ولكن ... يا جدتى ، ألم تريه أنت أمس ؟

الجدة : وأى جهد كلفتنى رؤيته ! مع ما يتطلبه صعود هذه
المطالع من مشقة لا تعيننى عليها رجلاى ! وذلك لأنه
إذا لم أصعد أنا فإنه لا يخطر على بال أحد أن ينزل
لزيارتى . لقد كان فى وسعك أن تأتى به معك .

بدا : كنت مارة بمحض الصدفة . ولم أكن متأكدة من
أننى سأدخل .

الجدة : على كل حال ما كانت هذه هى المرة الأولى التى أراك فيها تجومين حول الدار ثم تمضين عنها خافضة الرأس .

فريدا : ليس ذلك بسببك أنت .

الجدة : بسبب من إذن ؟ بسبب أختك ؟

فريدا : أهى فى البيت ؟

الجدة : فى الحديقة تشذب أطراف الشجر . أأناديها ؟

فريدا : لا . دعيها . إنى أوثر أن أتحدث إليك أنت وحدك .

الجدة : لأول وهلة يبدو كما لو كنت تخافين منها . أهى أختك التى تجعلك تمشين خافضة الرأس دون أن تعرجى على باب بيتى ؟

فريدا : إن « إستيلا » لم تعد كما كانت . فهى منذ موت بيتر تنظر إلينا جميعاً كما لو كنا أعداءها . كما لو كان أحدنا مسؤولا عن مصيبتها .

الجدة : يجب دائماً أن نلتمس العذر لمن يتعذبون . لقد بقيت وحيدة وفقدت كل شىء ... أما أنت فلديك كل ما يوفر لك السعادة ، ومائدتك لا تخلو أبداً من خبز يزيد على حاجتك .

فريدا : وهل تعتقدين أننى راضية بهذا ؟ إن كل ما أملك

يبدو لى أقل مما تستحق أن أعطيها إياه ... ولكنها لا تريد قبول شيء مني .

الجدة : لا منك ولا من غيرك . إن ألم الفقراء شديد الاعتداد بالكرامة .

فريدا : أتفهمين الآن لماذا أمر كثيراً بهذا البيت دون أن أرفع عيني ؟ إنه يؤلمني أن أرى أختى وهى مشغولة بخياطة شباك الآخرين ، أو منكبة على الأرض تفلحها وتزرعها كما لو كانت رجلا ، أو منصرفة إلى صناعة هذه المراكب الصغيرة فى ليالى الشتاء .

الجدة : إنها لا تكف عن ترديد عبارتها المأثورة فى تفسير ذلك : « خير وسيلة لتذكر الذين ذهبوا هى شغل أماكنهم ومواصلة عملهم » .

فريدا : ولماذا تحكم على نفسها بهذه الوحدة الموحشة ؟ إن بيتى كبير يسعنا لنعيش فيه جميعاً .

الجدة : أتريدين منها أن تفارق هذه الجدران ؟ إن هذا لن يكون إلا إذا كانوا يحملونها على نعش . لقد عرضت عليها يوماً من الأيام أن تؤجر هذه الغرفة المطلة على البحر إذ لا تخلو هذه القرية من أجنبى أو غريب مستعد لدفع إيجار مرتفع . ولكنها رفضت بصورة

قاطعة . إنها لن تخرج من هنا ، ولن تسمح لأى غريب بأن يطل من النافذة التى كان بيتر يطل منها .

فريـــدا : وحتى متى ستستطيع أن تستمر فى المقاومة هكذا ؟ إن العمل الذى تباشره امرأة وحيدة مهما بذلت من جهد لا يكفى لإقامة أود بيت كل رأس ماله شباك معلقة لا تعمل ، ومركب صيد قابع فى الميناء لايخرج إلى البحر .

الجـــدة : لقد مر نحو سنتين ومع ذلك فنحن نقيم من أمرنا ما استطعنا بفضل هذا العمل .

فريـــدا : لا ياجدتى . وأنت تعرفين الحقيقة كما أعرفها أنا : إن إيجار الحديقة لم يدفع بعد . ولم يعد لديكم ضمان للدفع إلا مركب الصيد . فهل أنتم مستعدون للتضحية به؟

الجـــدة : إن هذا المركب لن ينتزعه منا أحد ، فسندافع عنه بالناب والظفر .

فريـــدا : ليست هناك إلا وسيلة واحدة للدفاع عنه : دفع الإيجار المتأخر .

الجـــدة : إن خمسين « كورونا » مبلغ كبير على بيت بقى بلا رجل .

فريـــدا : ولكن فى بيتى رجلا ... قوياً معافى . هذا هو ما أنيت

لأقوله لك : لقد تم إنقاذ مركب بيتر .

الجـدة : ماذا ؟ هل دفع كريستيان متأخر الإيجار ؟ وأنت تستخفين من أختك حتى لا تبلغيها مثل هذا الخبر ؟

فريـدا : لو أنها علمت بأن هذه النقود منا نحن فربما امتنعت عن قبولها .

الجـدة : ولكن .... إذن ما الذى تخفيانه عنى أنتما الاثنتان ؟ هل حدث بينكما شىء ؟

فريـدا : أما من ناحيتى أنا فلا . وأما هى ... أدعو الله أن يكون كل شىء مجرد أوهام منى (تقترب من الجدة فى هيئة من سيدلى بسر) قولى لى ياجدتى ألم تقل لك امستيلا شيئاً ؟

الجـدة : عمن ؟

فريـدا : لا أدرى ... عنى ... أو عن كريستيان ؟

الجـدة : عن زوجك ؟ وما شأنها هى بزوجك ؟

فريـدا : لقد كان هو رفيق بيتر ، وكانا لا يكادان يفترقان .

الجـدة : أما أنهما كانا رفيقين فنعم . ولكنهما لم يكونا صديقين أبداً . أنت تعرفين هذا حق المعرفة . لماذا تذكرين ذلك الآن ؟

فريـــدا : لا . لا شيء .

الجـــدة : قول « لا شيء » كلام لا معنى له . لقد كنت تزمعين البوح لي بشيء .

فريـــدا : (تبتعد) : هي أشياء تمر أحياناً على ذهني . ولكنها قد انقضت الآن .

الجـــدة : ... هكذا يا بنيتي هكذا ! إذا كان هناك شيء يعض روحك ويدميها فتذرعي بالصمت ودعيه يمزق أحشاءك من داخل ! . الصمت .... دائماً الصمت . وأنا هنا مابينكما وقد امتلأت حتى زوري بالكلمات دون أن أجد من يشاطرني إياها !

فريـــدا : كل ما أردت أن أقوله لك قد قلته . والآن لا أطلب منك إلا أن تكتمي ما حدثتك به وألا تطلعي إستيلا عليـــه .

الجـــدة : ماذا ؟ لا أطلعها عليه ؟ بل سوف أفعل بمجرد أن تدخل من هذا الباب . . . لقد أحسنت بي الظن إذ تعتقدين أنني ممن تثقلهم أسرارهم فيمشون بها إلى مخبأ يجترونها فيه ! لقد ولدت هكذا وهكذا سأبقى ! ألا ترين إلى أولئك الأطفال الذين يدخلون الفزع إلى قلوبهم حينما يهددونهم بالظلام ؟ إذن فاعرفي أن

أشد ما يفزعنى هو الصمت . ولو تفكرت فى الأمر رويا لوجدت أن الظلام والصمت شيء واحد .

(يظهر على الباب العم ماركو ، وهو صياد بطيء الحركة يبدو عليه الثقل والتبلد . وهو يدخل حاملا سفطاً من الخوص عليه نموذج لمركب شراعى صغير وتماثيل أخرى صغيرة من منتجات الصناعة الشعبية الشائعة فى قرى الصيادين) .

(الجدة وفريدا والعم ماركو)

ماركــو : سعيدة .

الجــدة : نموذج آخر من نماذج الصمت المطبق ! هل سمعته يلقى مرة بتحية كاملة ؟ « سعيدة » أما « الليلة » فعليك أنت أن تضعيها إذا شئت استكمال التحية .

إننى أراهن على أنك لم تستطع بيع شيء !

ماركــو : ولو فعلت لكسبت الرهان . لم أبع ولا نموذجاً واحداً .

الجــدة : على الرغم من المسافرين الذين امتلأت بهم السفينة القادمة اليوم ! ؟ وأى مسافرين ! من أولئك السياح الذين يسافرون لا لشيء إلا للذة السفر والذين يأتون معهم بنقود من بلاد بعيدة ، وهى نقود تساوى دائماً أكثر من تلك التى بين أيدينا .

ماركـــو : ولكنهم ينظرون ، ثم يمضون فى طريقهم ، ثم يعودون إلى النظر . إن الأجانب والأغراب لا يأتون إلى هنا إلا للنظر .

الجـــدة : وأنت هناك ، جامد كأنك عمود منصوب ، تنظر إليهم وهم ماضون فى طريقهم . التاجر الحصيف يعرف أن البضاعة إذا لم تدخل إلى المشترى عن طريق عينيه فلابد أن يزج بها فى أذنيه .

ماركو : لابد أن السبب فى ذلك هو أننى لا أصلح لهذا العمل . فكل واحد لما خلق له .

الجـــدة : لا واحد ولا نصف ولا شىء ... أى شيطان حملنا على أن نرسلك أنت لتبيع مثل هذه الأشياء ؟ بهذا المنظر الذى تبدو معه كأنك سحلية حزينة ، وبيديك الحرقاوين اللتين لا تحسنان صنع شىء .

ماركـــو : بلا إهانات ، أرجوك . وإلا فإن المرء قد يحتمل ويحتمل ويحتمل .... ثم يأتى يوم لا يستطيع فيه تحمل المزيد ، وحينئذ يعلم الله ما يفعل .

الجـــدة : ليت هذا اليوم يأتى ! فما أشد رغبتى فى أن أراك

وقد تناثر من فمك الزبد بدلا من أن تظل هكذا مكتوف الذراعين . ولكن ما جدوى ما أقول ؟ إذا كانوا فى يوم تعميدك وأنت لا تزال طفلا وليداً قد نثروا على رأسك السكر عوضاً عن الملح كما يفعلون دائماً بالأطفال !

فريــدا : (متناولة نموذج المركب الشراعى ومتوجهة به لتضعه على الرف) ليس الذنب ذنبه . فإنه لم يعد أحد يشترى مثل هذه الأشياء كما كانوا يشترونها من قبل . فالمصانع اليوم تنتج كل شىء بل وتوصله إلى البيوت ، وبأسعار أرخص .

الجــدة : أى ثمن طلبت فيه ؟

ماركــو : الذى أمرت بأن أطلبه : عشر كورونات .

الجــدة : بلا تخفيض ؟ ليس من الغريب إذن أن يبدو غالياً ! آه لو كنت أنا المضطلعة ببيعه (تتناول المركب من يدى فريدا)

— « كم يساوى هذا المركب ؟ »

— « خمس عشرة كورونات ياسيدى ، إنه خشب من أجود الأنواع . تشممه ياسيدى إذ ما زالت فيه روائح الغابة . »

«– لا .... هو غال جداً »

– « لنتفق إذن . من أجلك أنت ياسيدى سأخفض سعره إلى اثنتى عشرة »

– « مازال السعر مرتفعاً » .

– « مرتفع ؟ لك أن تقدر يا سيدى ما بذل فيه من جهد : عشرون ليلة من العمل المتواصل الشاق ! عشرون ليلة من عمل امرأة جمدت يداها من البرد ! »

– « لا أستطيع أن أدفع أكثر من عشرة » .

– « عشرة ؟ ... عشرة فقط ؟ لا بأس ، خذه إذن »

وتنتهى الصفقة (تنفض يديها وتعيد المركب إلى فريدا التى تودعه مكانه على الرف إلى جوار المراكب الأخرى) .

ماركو : (يبدو كأنه يبذل مجهوداً عقلياً كبيراً) : لست أرى فرقاً كبيراً ، فالثمن واحد ، سواء قلت الكلمات أو كثرت .

الجـدة : وما فائدة الكلمات إذن ؟ لو أنك ذهبت يوم الأحد الماضى إلى الكنيسة بدلا من المشرب الذى تسكر فيه لسمعت ما قاله القسيس فى موعظته ، وما أبدع كلام هذا الملعون .... لقد قال : « وأرسل المسيح

إلى مختلف أنحاء الأرض تلاميذه الذين لم يكونوا إلا صيادين فقراء مثلكم ، فما الذى تظنون أنه سلح به هؤلاء التلاميذ من أجل نشر دعوته ؟ أترون أنه أعطاهم خيلا ، أو سيوفاً ؟ كلا .... إنه لم يعطهم غير الكلمة . وبالكلمة استطاعوا غزو العالم » .

ماركــو : ليس الأمر سواء . فرسل المسيح كانوا رجالا ، وكان هو يعرف لذلك أنهم لن يسيئوا استغلال الكلمة .

الجــدة : بدأنا فى التعريض إذن . أليس كذلك ؟ تأمل أولا ماتعود عليك بالخير محافظتك الشديدة على لسانك حتى لايرهقه الكلام .

ماركــو : مادمت ذكرت الكلام فإنى أقول لك ضد ذلك : أما البيع فصحيح أنى لم أستطع بيع شىء ، وأما الكلام فقد تكلمت .

الجــدة : ومع من ؟

ماركــو : رجل لا أعرفه . كان أحد المسافرين على السفينة . وقد التقيت به وهو هناك على رمال الشاطىء ، وكان مثبتاً عينيه على المنحدر الصاعد إلى البيت لا يكاد يطرف . وسألنى : « هل تصنع أنت هذه المراكب؟ »

فأجبته : « لا ... لست أنا ، بل هى امرأة بيتر أندرسون » . ولم يكد يسمع هذا الاسم حتى شحب وجهه ، بل يبدو لى أننى رأيت شفتيه ترتعشان كما لو كانت قد أصابته رعدة برد . وكرر فى صوت خفيض « بيتر أندرسون ... بيتر أندرسون .... »

فريـــدا : شىء غريب ! .... وبعد ؟

ماركـــو : ثم أشار إلى البيت كما لو كان يعرف القرية وقال : « إن بيته هو ذلك فى نهاية مطلع هذا المنحدر . أليس كذلك ؟ » فأجبته : « نعم ياسيدى هو ذلك بيته » . وحينئذ عاد إلى الصمت وهو مازال ينظر إلى البيت . وكان هذا هو كل شىء .

الجـــدة : كان هذا هو كل شىء ؟ ولكن ... عليك اللعنة ! إنك ترى رجلا قادماً من بلاد بعيدة ، وهو يعرف بيتر أندرسون ويسأل عن بيته ... ثم تتركه هكذا كأنما هو أمر يتكرر حدوثه كل يوم (تنادى بصوت مرتفع) استيلا ! ... استيلا !

فريـــدا : (متأهبة للخروج لتتجنب لقاء أختها) وداعاً ياجدتى...

الجـــدة : ابقى فى مكانك ! أي عجلة فاجأتك فى هذه اللحظة ؟

فريـــدا : لقد تأخرت . وربما كان الطفل وحده الآن ...

(تظهر إستيلا على الباب

الجدة : انتظرى ... قلت لك .
فتوقف أختها بإشارة من يدها)

إستيلا : كنت ذاهبة بسبب قدومى أنا ؟

فريدا : لا ... ولكنني تأخرت كثيراً . وقد فاتنى وقت ...

الجدة : لم يفت أبداً الوقت على إيضاح الأمور . فإذا كان بينكما ما يستدعي الكلام فقولاه الآن ... وليبسط السلام ظله على هذه الدنيا ، وفى الآخرة الخلود ...

(تعود فريدا إلى المسرح . إستيلا تودع على الأرض مجرفة للأعشاب ومقصاً لتشذيب الشجر ، وتضع على المائدة حزمة من الغصون الخضراء)

إستيلا : ألهذا ناديتنى بكل هذا الصياح ؟

الجدة : الذنب ذنب العم ماركو . تصوري أنه قد وصل إلى المرسى صديق لبيتر فسأل عن بيته ، ومع ذلك فها نحن أولاء لا نعرف من هو ولا ما الذى يريد ولا لماذا قدم ولا إلى أين سيتوجه .

إستيلا : صديق ... ؟

ماركو : لم أقل إنه صديق له . كل ما قلته هو أنه كان يبدو عليه أنه يعرف الاسم والمنزل .

إستيلا : من أين قدم ؟

الجـــدة : ومن أين تريدين أن يقدم ؟ من الجنوب . لقد وصل في السفينة .

إستيلا : الجنوب ياجدتي ليس مكاناً محدد المعالم .

الجـــدة : (متوجهة بالسؤال إلى ماركو) هل هو طويل القامة ملتف العضلات ؟ هل هو أزرق العينين ؟

ماركـــو : لا .

الجـــدة : ألا ترين ؟ هو إذن من الجنوب . أتريدين أن تعلميني ما هو الجنوب ؟

إستيـــلا : (مفكرة) : ربما . إن بيتر رحل إلى جهات البحار الأربع ، وكل من عرفوه كانوا يحبونه .

الجـــدة : (متوجهة إلى ماركو) ألا تسمع ما تقول ؟ ما الذى تنتظر لكي تجرى لتبحث عن ذلك الرجل ؟

ماركو : لم يطلب أحد مني ذلك . أأذهب ؟

إستيلا : اذهب . إن بيت بيتر أندرسون كان دائماً مفتوحاً لأصدقائه .

الجدة : (تهز رجليها فى فروغ صبر) صديق ! صديق قادم من مكان لا يعلمه إلا الله. ونحن عاجزات عن تقديم شيء له ! يجب أن نرتب كل شيء ونعده على أحسن صورة...

يجب أن نوقد المدفأة ، أو ننظف الأثاث حتى يبدو النحاس متألق اللمعان (تتوقف فجأة أمام فريدا كمن يحاول أن يتذكر شيئاً) انتظرى ... ما الذى كنت أوصيتنى بأن أكتمه عن أختك ؟ آه ، الآن أذكر ... الإيجار المتأخر ... (مخاطبة إستيلا) لقد دفعت أختك مبلغ الخمسين كوروناً قيمة الإيجار المتأخر .

فريـــدا : ألا تستطيعين التزام السكوت ولو مرة واحدة فقط ؟

الجـــدة : أتريدين منى أنا أن ألتزم السكوت أو أركن إلى الهدوء؟ ... أنا ؟ لا يابنيتى ... سيكون لدىّ وقت طويل لذلك حينما يهيلون من التراب على جسدى ما يبلغ ارتفاعه قصبتين (خارجة إلى المطبخ محدثة نفسها) آه لو كنت أستطيع أن أطير وأغنى فى وقت واحد ، كما تفعل الطيور والأجراس ! ....

(إستيلا وفريدا)

إستيلا : لماذا فعلت ذلك ؟ لقد قلت لك مائة مرة إننى أريد أن أدبر شئون بيتى وحدى دون معونة أحد .

فريـــدا : أما كنت أنت تفعلين معى ما فعلت لو كنت فى مثل موقفك ؟ ألم تعينينى أنت دائماً على أمر بيتى ؟ ألا

تذكرين أننا قبل أن نتزوج لم يكن بيننا ما ندعوه ملكاً لى أو ملكاً لك ؟

إستيلا : ولكن الوضع الآن مختلف إذ أن ما فى بيت المرأة المتزوجة كله ملك لزوجها .

فريـــدا : إن كريستيان لا علم له بشىء .... فقد دفعت المبلغ من مدخراتى الخاصة .

إستيلا : إذن تصرفت فى هذه النقود دون أن تقولى له شيئاً ؟

فريـــدا : لقد كنت أخشى أن النقود لوجاءت منه فربما بدا الأمر لك على أنه لون من الاستعلاء أو الإذلال .

إستيلا : إننى لم أطلب أبداً شيئاً من أحد ، ولست أحتاج إليه .

فريـــدا : هذه النقود منى أنا ، وهى لإنقاذ مركب بيتر . أتريدين الآن أن تهينينى بقذفها فى وجهى ؟

إستيلا : لا يافريدا ، بل سأرد لك هذا المبلغ بنفس شعور الحب الذى قدمته به إلىّ . هذا هو كل مافى الأمر . وشكراً لك (تنزل عن الحائط شبكة معلقة وتنشرها على ركبتيها وتجلس لخياطتها)

فريدا : هل أضايقك بوجودى معك ؟

إستيلا : على العكس ، أشكرك على مكوثك معى . فقد مر وقت طويل دون أن نلتقى .

فريـــدا : (تجلس إلى جوارها محاولة مساعدتها) : ليس الذنب ذنبى ، ولكنى لم آت لزيارتك إلا وجدتك مختلفة كل الاختلاف عما كنت عليه ، بل كان يبدو لى أنك فى عالم بعيد ، وكثيراً ما كنت أحاول الحديث معك فيظهر عليك أنك لا تسمعيننى كما لو كنت فى واد آخر .

إستيلا : ليس هناك بالنسبة لى أى واد آخر ، فأنا دائماً فى نفس الوادى .

فريـــدا : أى رغبة هذه التى تتملكك فى تعذيب نفسك ؟ إن ما حدث لك ليس أمراً جديداً فى هذه القرية ، وقد تعرضت له من قبل نساء كثيرات ولكنهن عرفن كيف يقاومن ويصمدن . إنها مشيئة الله ولا مفر من احترام مشيئة الله .

إستيلا : نعم ، هؤلاء استطعن المقاومة والصمود ما دمن مؤمنات بأنها مشيئة الله . لكن الله لم يرد لبيتر أن يموت .

فريـــدا : ومن الذى يحرك الريح إذن ؟

إستيلا : لم تكن ضربة من ضربات الريح تلك التى قذفت به إلى سفح الجبل . بل كانت يداً أثيمة مجرمة .

فريـــدا : أما زلت تصرين على أن الحادث كان جريمة مدبرة ؟

إستيلا : لقد رأيته من تلك النافذة ، ولكن الصرخة التى أطلقتها لم تغن شيئاً . حدث كل شىء فجأة كما لو كان

خياطة الشبكة وتظل شاخصة ببصرها) ... ولكن
من هو ؟ إننى حينما أخلد إلى النوم أرى فى الحلم
جميع من نعرف من الرجال يسيرون أمام بصرى
واحدا واحدا كأنما استعرض جيشا من
تمشى فى الضباب ، وأرى بعضهم فى أثنا
وهم يتحولون إلى بخار يذوب فى الجو ، و
الآخر يظلون ساكنين وقد خفضوا أبصارهم
أيديهم . وأرى نفسى جاثية على ركبتى بين
جميعا أتوسل إليهم أن يكشفوا لى عن
ولكنهم يبقون صامتين لايلقى أحد منهم برد
ليس بينهم أحد يرثى لألم امرأة وحيدة تمز
أسئلة لاتحظى بجواب ! (فترة صمت ، تعو
إلى عملها)

فريدا : إننى قد أفهم تجنبك لأهل القرية أجمعين
لرؤيتى ولقائى أنا ؟ لماذا ؟ إنه لايفصل
وبيتى إلا نحو مائة خطوة ، هذا بالنس
أردت زيارتك ، أما بالنسبة لك أنت فيبدو
فرسخ .

إستيلا : إننى أريد قضاء أيامى هنا ، ثابتة جامد
كنت هذا المجداف الذي ترينه معلقا على

أما مابقى لى فى هذه الحياة فإنه معى فى داخل هذا البيت .

فريدا : ألا تعتبرينى أنا أيضا جزءا مما بقى لك فى هذه الحياة ؟

إستيلا : إنك لاتحتاجين إلى فى شىء ، فلديك زوجك وابنك.

فريدا : أنت تتكلمين كما لو كنت تشعرين بمرارة الحقد . وكأنما تزيد فى شعورك بالألم والشقاء رؤيتك لسعادة الآخرين .

إستيلاء : أتراك قادرة على تصور مثل هذا فى أنا ؟ لا يافريدا . إننى لم أعرف أبدا الحسد للآخرين على مايقدر لهم من خير ، أما بالنسبة لك أنت فاسمعى جيدا ما أقول لك وثقى به إذا كنت قد شككت فيه مرة من قبل : إنه لو كان تخفيف ألمى الذى ترين رهينا بشىء فيه

إستيلا : (بصوت متكاف النبرات تحاول أن تصطنع فيه الهدوء) ساعديني فى إصلاح هذه الخيوط المتشابكة فإن أصابعى عاجزة عن فكها .

فريدا : لا تحاولى تغيير مجرى الحديث . أجيبى ... أهو من أجل كريستيان ؟

إستيلا : (بصوت يبدو فيه بذل جهد كبير دون أن تنظر إليها) : إن كريستيان له شأن آخر . فالذين لم يكونوا أصدقاء لبيتر فى حياته لايمكن أن يكونوا أصدقائى .

فريدا : ..... حتى الآن ؟! لقد كنت أظن الساعة حانت لكى يعفى النسيان على أحقاد بعد بها العهد .

إستيلا : لندع هذا. فهى أشياء مضت كما تتمولين وبعدبها العهد.

فريدا : لا ياإستيلا . إنه من الخير لنا جميعاً أن نتحدث أخيرا وبصراحة ووضوح حتى ولو تجشمنا فى ذلك مشقة ونصبا . لقد كنت تعتقدين دائما أن زوجى يكره زوجك .

إستيلا : أما الكراهية فإننى لا أؤكدها ، وأما المنافسة فقد كانا حقا غريمين متنافسين . فقد وضعتهما الحياة وجها لوجه فى مناسبات كثيرة دون أن يتعمد أحد منهما ذلك .

فريدا : وكنت أنت أولى هذه المناسبات . فإن كريستيان لم يكن ينظر إلا إلى نافذتك أنت قبل أن تبدأ خطوبتك لبيتر .

إستيلا : ولكن ... مالنا الآن ولتذكر هذه القصص القديمة ؟

فريدا : فإذا كان هناك بينهما تنافس عليك فإن كل ذلك قد انتهى ولم يعد يحسب له حساب . لقد تزوجنا نحن الاثنتين فى يوم واحد وبعد الزواج عادا إلى ما كانا عليه : صديقين حميمين .

إستيلا : ولكن التنافس بينهما ظل قائما على قدم وساق ، يهيجه أى دافع ، لقد كانا يخرجان إلى البحر فكان بيتر هو الفائز دائما فى الصيد ، وكانا يغنيان فى صلوات الكنيسة أو فى المشرب ، فكان صوت بيتر هو أجمل الأصوات .

فريدا : (تنهض من مقعدها) لقد كانت منافسات صبيانية مما يعرض للفتيان فى مثل هذه القرى الصغيرة ، يتشاجران اليوم ويعودان للتعانق غدا .

إستيلا : ثم كان بعد ذلك صراعهما على مركب الصيد . كان الاثنان يحلمان بنفس الشيء ، وكان الاثنان يعملان بياض النهار وسواد الليل حتى يتمكنا من

بلوغ هذا الأمل . ولكن المركب كان فى النهاية من نصيب الذى عمل أكثر من صاحبه والذى كان أحوج منه إليه . وفى ذلك اليوم تشاجرا للمرة الأخيرة ... ولكنهما لم يعودا بعد ذلك إلى العناق (مستطردة بصوت عميق النبرات) كان هذا فى الليلة التى مات فيها بيتر .

فريدا : وهل تكفى مشاجرة مثل هذه مما يقع دائما بين الأصدقاء لكى تبرر تصرفك هذا فى مقاطعة كريستيان إن ماحدث لم يكن إلا ماقلت أنت نفسك : أولا تنافس بين شابين صغيرين على حب امرأة واحدة ، ثم تنافس بين صيادين على مركب واحد . هذا كل شىء فهل تستطيعين اتهام كريستيان بشىء آخر ؟

إستيلا : وهل سبق لى أن اتهمته بشىء ؟

فريدا : لست أسألك عما تقولينه بصوت عال . إن الذى أود معرفته هو ما ينخر فى نفسك من داخل .

إستيلا : كونى مطمئنة فليس لدى شىء ضد كريستيان ... لا شىء ... لا شىء ! ... (ثم تستطرد فى صوت مكتوم وهى تحاول أن تتمالك نفسها) ولو كان

هناك شيء لكفاني أن أفكر فيك أنت وفى ابنك لكى أسكت عن قوله .

فريدا : (تتملكها رعدة مفاجئة وتنظر إلى أختها نظرة فاحصة) : إستيلا . أتقدرين مدى ماتعنيه الكلمات التى قلتها الآن ؟

إستيلا : (فى ألم شديد) : أنا لم أقل شيئا .

فريدا : لقد قلت مايكفى ويزيد . وقد فات الآن وقت التراجع (تدنو منها وترفع وجه أختها) ارفعى وجهك هذا وانظرى إلى . لماذا ذكرتنى من قبل بأنهما تشاجرا فى نفس الليلة التى مات فيها بيتر ؟

إستيلا : (فى يأس وفروغ صبر) : أقسم عليك بأعز شيء لديك ... اسكتى .

فريدا : من هو ذلك الرجل الذى يظهر لك فى أحلامك ؟ ذلك الذى يحول عنك عينيه ويخفى يديه ؟ أهو كريستيان ؟

إستيلا : أنا لم أقل إنه هو . أنا لم أرد أن أقول شيئا (تغطى رأسها بذراعيها)

فريدا : (تتحجر فى موضعها وهى تردد فى صوت خفيض وكأنها أمام اكتشاف لاتكاد تصدقه) : إنه هو ...

هو ... والذى يعتقد ذلك ليس إلا أختى نفسها !

(فريدا تتهالك على المقعد فى إعياء وقد استعصت على عينيها الدموع وشخصت عيناها فى الفراغ دون أن تنظر إلى شىء . إستيلا تركع إلى جوارها محتمية بحجرها).

إستيلا : سامحينى يافريدا . إنى أقسم لك أننى لم أرد أبداً الاعتقاد فى ذلك ولكنه شىء أقوى منى . إننى أستطيع أن أشد قبضتى يدى أو أصرف بأسنانى حتى ألقى أغلالا على الكلمات . أما الأوهام والأفكار فليست هناك قوة تستطيع تقييدها . أنت لا تعرفين كيف كافحت هذا الوهم الذى كان يحرقنى بلهيبه ، ولا تلك الصرخات التى كنت أكتمها على وسادتى وأنا أكرر : هذا غير ممكن . إن كريستيان طيب خير . وإنما الشر منك أنت يا امرأة السوء ، يامن تجرى فى عروقها دماء المرارة . ولكن ... كنت أعود إلى النوم فلا ألبث أن يتراءى لى كريستيان فى الحلم كأنه برق أسود وهو واقف على قدميه منتصب على الدماء التى تلطخ منحدر الجبل .

فريدا : (جامدة لا تتحرك ولا تنظر إليها) لعلك الآن تظنين أنه ينبغى على أن أشكر لك صمتك . لقد كان من

الأفضل أن تتهميه فى صراحة ، فقد كان فى وسعه حينئذ أن يدافع عن نفسه .

إستيلا : لقد كنت أرجو أن أتمكن من إقناع نفسى ببراءته . وأؤكد لك أننى لو استطعت النسيان والغفران لما كان فى الوجود من هو أسعد منى . ولكن لم تسر الأمور على ما رجوت : إن كريستيان لا يكاد يخطو خطوة واحدة إلا وأثار فى نفسى شكوكا وريبا جديدة . لماذا كان هو الشخص الوحيد الذى لم يأت لرؤية بيتر حينما كان ممددا هناك على الموضع الذى لقى فيه حتفه ؟ لماذا يدمن الآن الشراب وهو الذى لم يشرب من قبل قط ؟ لماذا لا يعود الآن إلى الجلوس أمام باب دارى ليدخن بيبته إلا ارتجفت يداه ؟

فريدا : كفى ! ليس فى وسعى أن أستمع إلى المزيد . (تنهض) ربما كنت أحوج إلى الرثاء منى . ولكنى أقول لك إن شيئا عميق الجذور قد انقطع بيننا اليوم.

إستيلا : لاتذهبى الآن هكذا . انتظرى .

فريدا : ما الذى تريدين لى أن أنتظر ؟ إننى حينما خرجت من بيتى تركت هناك رجلا كان مستودع إيمانى كله ، رجلا كنت أستطيع تقبيله والسعادة تغمر

نفسى . والآن أعود حاملة إليه صمتا حزينا يلوى بالبرودة الثقيلة على مائدة طعامنا . ومن المسئول عن ذلك ؟ أنت ... التى لاترددين فى قطع يدك قبل أن تمتد إلى بالأذى ! إذن فاسمعى : لقد ألحقت بى شر مايمكن أن يصيبنى من أذى ، وأسوأ مافيه أنه أذى لا طائل منه ولا جدوى وراءه ، إذ أنه لم يؤد بك إلى استعادة ما كنت تتوقين إليه من طمأنينة وسلام ، وكل ما وصلت إليه هو أنك سممت طمأنينتى وسلامى . هذا هو مافعلت ! اقطعى يدك إذن يا إستيلا ! ... اقطعى يدك !

(تخرج وهى تختنق بالزفرات ، الشمس تغرب والظلام يزحف فى الخارج على المكان . إستيلا تبكى فى حرقة وهى فى موضعها راكعة . لحظة صمت طويلة . من بعيد يسـمع صـوت أجراس تدق منادية إلى الصلاة . إستيلا تنهض وتوقد المصباح . الجدة تدخل وهى تجفف يديها) .

(إستيلا والجدة)

الجدة : إن أطباق الصينى والنحاس تلمع الآن كما لو كانت جمرة تتوهج . إنه إذا جاء فربما بدونا له فقراء .

نعم . ولكنه سيرانا نظيفات كالفضة لماذا لاتصلحين الآن من نفسك وزيك ؟ إن فى قاع الصندوق منديلا كبيرا من الحرير وزجاجة من الماء المعطر .

إستيلا : ولمن تريدين لى أن أصلح من شأنى ؟ ألا أبدو لائقة هكذا ؟

الجدة : لا أقصد هذا . إنك من الجمال بحيث ما كان لك ان تحسدى أى امرأة أخرى على ما أوتيت . ولا أنا كنت فى مثل جمالك حينما كان لى مثل عمرك ؛ ولكن الرجال يحدقون النظر فى كل شىء ، وأكثرهم تنبها وأدقهم ملاحظة هم الغرباء الذين يقدمون بعيون جديدة متطلعة (تنظف وترتب كل ما يقع إلى يدها) . أما هذا الرجل فلا بد أنه رأى على طول حياته أشياء لايحيط بها الحصر : أسفار ... بلاد ... ناس يغدون ويروحون ..

إستيلا : إن هذه الزيارة قد جلبت لأعصابك كثيرا من التوتر فيما يبدو .

الجدة : توتر الأعصاب تعبير لا يعبر عما أنا فيه . أتصدقين أنى أرتجف من قمة رأسى إلى إخمص قدمى ؟

إستيلا : نعم ها أنا أرى ذلك . ولكن لماذا ؟

الجدة : ياله من سؤال ! ألا تقدرين بعد هذه الوحدة الطويلة ما يعنيه دخول رجل من ذلك الباب ؟ ... رجل قادم من أرض بعيدة ! الإحساس مرة أخرى بوقع أقدام رجل على أرض البيت ! الاستماع إلى صوت رجل !

إستيلا : ألا يكفيك الاستماع إلى صوتى ؟

الجدة : ماقيمة الحديث بين امرأتين ؟ إنه أشبه مايكون بالمطر ينسكب على صفحة ماء البحر . إننا نستطيع أن نبدى من الترفع والكبرياء كل ماتشائين ، نستطيع أن نحول أبصارنا عن الرجال لأن هذا هو ماينبغى أن نفعل وهو ما درجوا على أن يلقنونا إياه . ولكن رجلا فى النهاية إنما هو ... رجل على كل حال . إذا كان قريبا منك فإنك تحسين بالطمأنينة والسكينة ، حتى جدران البيت تبدو كما لو كانت أكثر ثباتا وإيحاء بالثقة والأمان ، وإذا لم تتطلع أنظار الرجال إليك فإنك لاتكادين تشعرين بأنك امرأة . إن البيت الذى يؤوى رجلا هو الذى تفوح منه رائحة القوة : رائحة التبغ الهادىء والنوم المطمئن .

إستيلا : جدتى ! ...

الجدة : (تتسمع فى عصبية) سكوت ... ها هو ذا ... ها هو ذا ... (تنزع عنها «مريلتها» فى حركة غريزية ، وتصلح من شعرها الرمادى الأشيب يدخل العم ماركو وهو يقود وراءه ريكاردو خوردان)

(الجدة وإستيلا والعم ماركو وريكاردو)

ماركو : (يقدم الحاضرين بعضهم لبعض) : إستيلا أندرسونا الجدة ... (يتبادلون التحية بدون كلام) . أما السيد فإنى لا أعرف اسمه .

ريكاردو : (يتقدم فى خجل) : خوردان ... ريكاردو خوردان (يتبادلون النظرات فى سكوت . لحظة صمت . ريكاردو يتأمل البيت فى تأثر ظاهر)

ماركو : إن السيد كما ترون ليس بدوره ممن يكثرون الكلام . أما بالنسبة إلى فأظن أننى قد أديت مهمتى . أليس كذلك ؟

إستيلا : شكراً لك ياعم ماركو .

ماركو : سعيدة ! ... (ثم يلتفت إلى الجدة ويرفع صوته) ليلة سعيدة ! (يخرج) .

(إستيلا والجدة وريكاردو)

إستيلا : ريكاردو خوردان ... لا أظن أننى سمعت هذا الاسم من قبل .

الجدة : ليس هذا من الغريب . حينما كان بيتر يعود من من رحلات صيده كان كثيرا ما يحدثنا عن السفن والأشجار والمداخن الكبيرة . أما الناس فما كان أقل ما يحدثنا عنهم . لقد كان يؤثر الكلام عن الأشياء على ذكر الأشخاص .

إستيلا : هل كنت صديقاً له ؟

ريكاردو : ليس هذا اللفظ هو الذى يعبر بالضبط عن علاقتى به ، لقد تعرفت به فى لحظة خاطفة منذ زمن ، وكان أثناءها يرفع صوته بأغنية . كانت لحظة قصيرة ولكن كان فيها من الأثر العميق على حياتى ما لا أستطيع معه نسيانها أبدا . بل إن ذكراها هى التى أتت بى الآن إلى هنا .

إستيلا : أوقمت بهذه الرحلة من أجله هو ؟ ألم تكن تعلم ...

ريكاردو : نعم كنت أعلم بكل ما وقع . ولكن كانت تجذبنى إلى هنا الرغبة الشديدة فى أن أعرف قريته والأشياء التى كانت خاصة به والناس الذين كان يحبهم .

إستيلا : أما الأشياء فهى قليلة : هى هذه الجدران الأربعة ،

ومركب صيد مشدود إلى رصيف الميناء بعد أن لم تعد له جدوى . وأما الناس الذين كان يحبهم فهم أهل القرية جميعا ونحن الاثنتين .

الجدة : كيف يمكن لك أن تتذكره على هذه الصورة إذا كانت معرفتك له لاتتجاوز لحظة واحدة ؟

ريكاردو : هناك لحظات تساوى لدي المرء حياة كاملة . وكانت هذه اللحظة من بينها . لقد كانت سعادتى أو شقائى رهينين بتوقيع على وثيقة وكان اسم بيتر أندرسون هو الذى قرر مصيرى كله . أما الذى لم أكن أتصوره يومئذ فهو أن السعادة والشقاء يمكن أن أن يكونا شيئا واحدا .

إستيلا : وهل كان هو يعرف ذلك ؟

ريكاردو : لم يكن فى وسعه أن يعرف . ولكن المؤكد هو أن كل ما أملك إنما أدين به له . ولو كان الأمر بيدى لبدا لى كل ما أملك أقل من أن يفى بذلك الدين .

إستيلا : شكرا لك على تذكرك له وعرفانك بجميله . ولكن ليس فى الدنيا مال يكفى لملء الفراغ الذى تركه فى هذا البيت .

ريكاردو : هذا هو ما كنت أخشاه . لقد كنت أفكر فى هذه الرحلة وأوشكت مائة مرة على الاضطلاع بها ،

ولكنى عدت كذلك مائة مرة إلى الانصراف عنها خشية ألا تكون لها جدوى ولا غناء .

الجدة : أما هذا فلا . ما الذى جاء بك إلى هنا وعم تبحث ؟ عن صديق ؟ فإن أمامك الآن صديقتين اثنتين . أكنت تظن أنك تدين لنا بشىء ؟ فاعلم إذن أن قدومك وحده قد أدى عنك الدين وزيادة . تكلمى أنت يا إستيلا فأنت صاحبة الشأن هنا . ما الذى كان سيقوله بيتر لو أنه كان هنا ؟

إستيلا : لم يكن لديه إلا عبارة واحدة يقولها لكل من يأتون إليه : « هذه هى مائدتى ، وهذا هو تبغى ، وتلك هى دارى . وكل هذا أضعه بين يديك » .

ريكاردو : لاتتسرعى بالبذل والحفاوة . هل فكرت أولا فيما إذا كنت أستحق كل ذلك ؟

إستيلا : إن الذى يأتى من بعيد لاينبغى أن يسأل ليطلب منه العطاء وإنما ليطلب منه القبول .

ريكاردو : (ينظر إليها فى تأثر عميق نظرة ملؤها الاحترام) : شكرا ياسيدتى

الجدة : هل سمعت ؟ ! «سيدتى ! » ! ... ما أجمل وقع

هذه الكلمة كما ينطق بها أهل الجنوب هؤلاء !
(تقرب كرسيا) اجلس من فضلك . فوقوفك
هكذا يوحى لى بأنك مقدم على الانصراف عن
قريب . أأنت متعب من السفر ؟

ريكاردو : لقد تعودت الأسفار .

الجدة : متى ستعود الباخرة إلى الإقلاع ؟

ريكاردو : غداً ، فى الفجر .

الجدة : بهذه السرعة ؟ إذن فإنك ستتناول العشاء معنا فى
هذه الليلة . أليس كذلك ؟ لا لا لا ... لا تحاول
أن تعتذر . أتريد تناول شىء من الشراب ؟ إن فى
وسعى أن آتى لك بإبريق من «البيرة» .

ريكاردو : شكرا ياسيدتى ، فإنى لست ظامئا .

الجدة : ألا تشعر بالبرد ؟ أتريد أن أشعل الموقد ؟

ريكاردو : لا ... لا تتعبى نفسك .

الجدة : (فى ضيق يكاد يقارب الغضب) : لست تحس
بالتعب ولا بالظمأ ولا بالبرد ! ... ينبغى أن تكون
محسا بشىء ! فقد اعتدنا أن يشعر الناس دائما بشىء .

إستيلا : (مبتسمة) : لاتضق ذرعا بالجدة . إنها تود دائما
أن يشعر الناس جميعا فى محضرها بالظمأ حتى تأتى

لهم بشراب ، وبالبرد حتى تشعل لهم موقدا يبعث فيهم الدفء . هذه هى طريقتها فى الشعور بالسعادة .

الجدة : إن العشاء سيكون معدا فى لحظات ، صحيح أنه ليس لدينا إلا بعض سمك « الرنجة » ، وأدعو الله ألا يخلى منه هذا البيت ، ولكنه ليس ذلك السمك المقدد الذى درجتم على تناوله هناك فى بلادكم ، بل هو طازج يخرج من البحر إلى المقلاة . أيعجبك سمك « الرنجة » ؟

ريكاردو : لاتشغلى نفسك بى ياسيدتى . فالبقاء إلى جوارك سينتهى بى إلى أن أعجب بكل شىء . شكرا جزيلا لك .

الجدة : لى ؟ ... شكراً لى ؟ الشكر لك أنت يا من ساقه إلينا الله ، ولو لم يكن إلا لليلة واحدة . (إلى إستيلا) ضعى طبقا آخر يا إستيلا (مستطردة بصوت فيه رعشة خفيفة) إنك لاتتصور مدى مايجثم من حزن وكآبة على مائدة لم يوضع عليها إلا طبقان ... يكون أحدهما هو طبق الجدة (تخرج فى مرح واغتباط) ثلاثة أطباق مرة أخرى ... ثلاثة أطباق ! (ريكاردو يتابعها بنظره وهو شبه مسحور . إستيلا تضع الطبق الثالث فى صمت) .

(إستيلا وريكادو)

ريكاردو : امرأة رائعة ... وما أرشق حركتها وهى فى هذه السن !

إستيلا : إنها توشك على إتمام سبعين سنة من الشباب .

ريكاردو : وهل هى هكذا دائما ؟

إستيلا : دائما . فى جميع الأوقات . الرخية والعصيبة . إن هناك أشجارا لا تسقط أوراقها الخضر عنها قط !

ريكاردو : إن أهل قريتكم قوم هادئون وأقوياء . لقد رأيت فى المزارع فتيات يقمن بأعمال الرجال وتصدح أصواتهن بالغناء فى نفس الوقت . وكانت على شفاه جميعهن ابتسامة نقية صافية ، ومناديلهن دائما على أهبة التلويح بالتحية . فتيات كلهن من ذوات العيون الزرق .

إستيلا : إنه من فرط النظر إلى ماء البحر . هل يعجبك هذا البلد ؟

ريكاردو : إننى لم أعرفه إلا منذ لحظات ومع ذلك فما كان أرغبنى فى أن يكون بلدى .

إستيلا : شكرا .

ريكاردو : إن العم ماركو قال لى أيضا إنك تعملين .

إستيلا : ليس ذلك لعنة أو غضبا من الله . وهل كان لى أن أفعل غير ذلك ؟

ريكاردو : ولكنك تضطلعين بعمل شاق ما كان لتحتمله يداك هاتان . لقد قيل لى إنك تفلحين الأرض وتزرعينها .

إستيلا : أى أرض ؟ هى مزرعة صغيرة . هناك وراء هذا الباب .

ريكاردو : وهل كنت تقومين بذلك من قبل ؟

إستيلا : لم تكن هناك ضرورة له . فى حياة بيتر كنا نكتفى بزرع الورود . ولكننا اضطررنا بعد ذلك إلى الغرس والزرع . إن أسوأ ما يقع للبيت الذى يخلو من رجل وأبعثه على الحزن فى النفس هو أن حديقته لاتلبث أن تتحول إلى مزرعة .

ريكاردو : لماذا ترفضين مساعدتى ؟ إن الذى أنفقته أنا فى ليلة واحدة كان يكفى لشراء مالا طاقة لمزرعتك بإخراجه من الثمرات على طول مائة سنة .

إستيلا : إن ليلتك هى ليلتك وعملى هو عملى ، ثم إنه يعيننى على التذكر .

ريكاردو : أرجو ألا تسيئى تأويل كلما .

إستيلا : لا . أنا أعلم أنها كلمات مخلصة نظيفة، وأنا أشكرك عليها (لحظة صمت) يبدو لى أنك غير سعيد بثروتك .

ريكاردو : وما جدواها ؟ ها أنت ترين أنها لا تمكننى من أن أخفف بها مشـقة العمل على امرأة ولا أن أشترى بها ساعة من النوم الهادىء .

إستيلا : هل هناك ماتسعى إلى نسيانه ؟

ريكاردو : ليتنى أستطيع !..

إستيلا : سيعينك الزمن والأسفار . أستذهب إلى بعيد ؟

ريكاردو : ليس هناك من ينتظرنى فى أى مكان . لقد كنت أود أن أفقد هذه السفينة غدا وأن أظل هنا فى انتظار عودتها .

إستيلا : إنها قرية فقيرة . ولن تستطيع التعود على الحياة فيها .

ريكاردو : إن ما أطلبه أقل من القليل ... ومع ذلك فما أشد عجزى عن الحصول عليه !

إستيلا : أهى الراحة ماتنشده ؟

ريكاردو : نعم ... الراحة . ومن يدرى ؟ فلعل هنا السلام الذى أسعى إليه .

إستيلا : (تنظر إليه وهو ساهم مغرق فى التفكير) : كم من الوقت تتأخر سفينتك فى العود مرة أخرى ؟

ريكاردو : أسبوعين .

إستيلا : (تحول عنه عينيها) إذا كانت تكفيك مائدة من شجر الصنوبر ونافذة على البحر ... فإن فى الطابق العلوى غرفة خالية .

ريكاردو : فى هذا البيت ؟ والذى يعرض على سقف بيته لكى يؤوينى هو أنت .... إستيلا أندرسون ؟

إستيلا : إننى أحاول أن أفعل ما كان يمكن أن يفعله هو لو كان فى مكانى . لماذا تغض من بصرك ؟

ريكاردو : لا أدرى ... ربما كان هذا من قلة التعود . فأنا قادم من عالم لايقدم فيه أحد شيئا إلا لقاء أجر . حتى أحط الجرائم وأجبنها لاترتكب إلا لقاء مال معلوم ... حيث ينظر الناس إلى كل من لايعرفونه نظرتهم إلى عدو منتظر . وأما هنا فعلى العكس: أنت لا تسألينى من أنا ولا من أين أتيت قبل أن تفتحى لى باب بيتك . أتفهمين الآن لماذا غضضت من بصرى ؟ إنه الخجل ... ثلاثون سنة من الخجل قد تصاعدت إلى وجهى فى هذه اللحظة .

إستيلا : لاتفكر الآن هذا . إن الذى يؤسفنى هو قلة ما أستطيع أن أقدم إليك . هل كنت طوال حياتك غنيا كما أنت الآن ؟

ريكاردو : لا . لم أكن دائما غنيا . لقد عرفت طعم الجوع فى طفولتى ... والآن قد بدأت أستعيد ذاكرتى .

إستيلا : إذن سيكون كل شىء سهلا ميسورا .

ريكاردو : ولكن فقرى لم يكن طوعا واختيارا كما هو الأمر بالنسبة لك . إنى أعرف أن مركبك هو أجمل مركب صيد فى القرية ، وأن كثيرين سيكونون سعداء لو قدر لهم شراؤه .

إستيلا : إنى أفضل أن أجوب الطرقات سائلة كسر الخبز على أن أبيع المركب ، إذ لو فعلت لكان بمثابة بيعه هو .

ريكاردو : إنى أعرف القصة . فقد اشتراه بيتر فى نفس اليوم الذى توفى فيه .

إستيلا : ما أسهل أن يقال « اشتراه » ... كلمة واحدة يقذف الناس بها وانتهى الأمر ! ولكن هل قدروا كم كلفه ذلك من أيام من التعب والجهد ، ومن ليال قضاها دون أن ينعم بنوم حتى يصل إلى الحصول عليه ؟ لقد كان بيتر فى الأيام التى يتعذر فيها

لخروج إلى البحر يسير إلى الغابة ليعمل اليوم كله في قطع أخشابها . وفى المساء كنا نعمل معا على نحت هذه النماذج الصغيرة التى تراها ، مضحين فى سبيل ذلك بخشب كان يمكن أن يأتى الدفء فى البيت . ولكن مالدينا كان قليلا لا يكفى . وهكذا يضطر هو مرة أخرى إلى التضحية بالتبغ فيمتنع عن التدخين ... كان سلما طويلا كل درجة فيه تعنى أسبوعا جديدا من الآلام والتضحيات ، ولكن كوم النقود والفضة كان لا يتزايد ولا يعلو.. ذلك الكوم الصغير الذى يستطيع أن يقصم ظهر رجل والذى يمكن مع ذلك أن يلف فى منديل . (لحظة صمت تسترد فيها أنفاسها) وأخيرا أقبل اليوم العظيم . إننى لم أذق طعم الرجفة التى تحس بها المرأة وهى فى انتظار مولود ، ولكنى أعتقد أنها ليست أكثر من تلك التى عرتنى فى هذا اليوم . نزل بيتر إلى الميناء سعيدا وقد ارتدى قميصاً نظيفا . وكنت أنا أنتظره وراء زجاج هذه النافذة وقد وضعت من جديد « بيبته » المحشوة بالتبغ إلى جوار طبقه ، وكانت الفرحة تتملك أعصابى وتغلى فى عروقى كما تغلى الحركة فى ثكنة النحل . ومن بعيد أحسست بقدومه.

كان يغنى بصوته الممتلىء الناضج ... ذلك الصوت الذى ينم عن الرجولة الحقة . وحينما وصل إلى منعرج الطريق فوق المنحدر رفع يده بالتحية لى ... وفجأة هناك فى نفس ذلك المكان ... وأمام عينى ... (يتصدع صوتها ويتهدج) لا ... لم تكن هذه إرادة الله !.. فالله لم يكن ليختار هذه الليلة بالذات . (تتمالك نفسها فى مشقة) . معذرة . ما كان ينبغى أن أذكر هذه الأشياء (تعود الجدة ومعها رغيف ضخم من الخبز وطبق كبير من السمك) .

(استيلا وريكادو والجدة)

الجدة : إلى المائدة قبل أن يبرد الطعام . لقد تأخرت كثيرا . أليس كذلك ؟ إننى لست أدرى ما الذى أصابنى اليوم إذ لا أكاد ألمس شيئا حتى ينزلق من بين يدى . لقد كنت أود أن أضع مع الطعام شرائح من الليمون ، ولكن الليمون من أعز الأشياء هنا ، على أنه يمكن الاستعاضة عنه بقطرتين من الخل وورقة من ورق النعناع . أما الخبز فإنه من القمح ، وهو رغيف طرى أخرج لتوه من الفرن . لقد أتيت به من السوق ، فخبز البيت يصلح لمناسبات أخرى

(تلتفت إلى ريكاردو وتشير له إلى موضع جلوسه على رأس المائدة) . هنا ، هذا مكان الرجل . نعم ، هكذا . (يجلس الثلاثة).

إستيلا : (تقدم له السكين) : أتتفضل بتقطيع الخبز ؟ إننا قد اعتدنا هنا على أن الرجل هو الذى يقطع الخبز ويبارك المائدة .

ريكاردو : شكراً . سأقطع الخبز . أما مباركة المائدة فإننى مهما أردت وحاولت فلن أوفق إلى الكلمات المناسبة . (يقطع الخبز ، ويقدم أولا إلى الجدة ثم إلى استيلا . تسمع من بعيد أصوات جوقة من الرجال تقترب مغنية نفس تلك الأغنية التى كان صوت بيتر يصدح بها ترافقها نغمات أكورديون . السكين تسقط من يد ريكاردو . إستيلا تنقبض يداها فى عصبية على مفرش المائدة وهى تحاول تمالك أعصابها)

إستيلا : هذه النافذة ، يا جدتى ... هذه النافذة ! (تنهض الجدة وتسرع بإقفال النافذة . ولكن الأصوات لا تزال مسموعة من الخارج وإن كانت مكتومة بعض الشىء) .

الجــدة : إنهم فتيان القرية فى جولاتهم الليلية . ما الذى يدريهم

هم بما يغنون ؟ ! (تعود إلى الجلوس إلى المائدة من جديد) .

إستيلا : اللهم بارك فى الغابة فأس الحطاب ، وفى البحر شباك الصياد ، وبارك لنا فى مائدتنا حتى لا تخلو من الخبز والسمك كما باركت فى مائدة روحاك وكلمتك السيد المسيح وهو فى جبل المعجزات . اللهم هبنا السلام والعمل والنوم الهادىء المطمئن ، وإذا كنا أسأنا إلى أحد فاغفر لنا يارب ... (تشهق فى عمق) ، وأوزعنا نحن أن نغفر ... (تطلق زفرة ألم على مفرش المائدة) لا ... هذا كذب ! إننى لم أغفر ! ... إننى لا أستطيع الغفران ! ... (تسمع أصوات الصيادين من الخارج وقد ارتفعت بالغناء)

ستار

الفصل الثالث

(نفس المكان. تدور حوادث هذا الفصل بعد الفصل الثانى بأسبوعين . الوقت : عصر يوم مشمس)

(العم ماركو يخلط مسحوق دهان بغراء فى أحد الأوعية ، وهو يطلق بصفير من بين أسنانه ، ثم يجرب الطلاء على لوحة من الخشب . تدخل الجدة المسرح من الباب المؤدى إلى المزرعة وهى تحمل سفطاً عليه كوم من البقول الخضراء الطازجة)

(الجدة والعم ماركو)

ماركو : هل بدأ جمع المحصول ؟

الجدة : إنها باكورة بسلة هذا الموسم ، إن حباتها ممتلئة طرية كأنها قطرات ضخمة من العسل ، لقد كان من المتعة رؤيتها وهى تتسلق العصى المثبتة فى الأرض وتلتف من حولها وتمد أصابعها باحثة عن ضوء الشمس ... نعم الشمس ! ... لوددت أنا أيضاً أن

أستطيع التسلق حتى أبلغها . (تجلس وتبدأ فى فرك حبات البسلة . العم ماركو يملأ بيبته ببطء) . ما أشد حسدى للبلاد التى تتمتع بالشمس طوال العام ، وهم مع ذلك لا يكفون عن الشكوى !

ماركو : ولكن الضباب أيضاً لا بأس به . فلعله أكثر إيحاء بالهدوء والسكينة .

الجـــدة : الهدوء والسكينة؟! أتريد مزيداً منهما بعد؟ لقد ولدت جالساً ، وهكذا سيقدر لك الموت . لو أننى كنت فى مثل سنك لما استطاع أحد أن يضيع على نعمة التمتع بمثل هذا اليوم ... اليوم الذي تشيع فيه من الغابة روائح زيوتها العطرة ، وترتجف فيه الأشجار والطيور تضطرب بين أغصانها ، وترى فيه الطرق وقد زينتها أزواج المتحابين ! ولكن لمن أقول هذا ؟ إنك دائماً فى « السابعة » !

ماركو : فى أى سابعة ؟

الجـــدة : فى « الراحة السابعة » .

ماركو : لست ممن خلقوا للمرح والحركة ؛ على ما أنا عليه درجت ، وقد فات الآن وقت التراجع . آه لو أن المرء عاش مرتين ...

لو صح ذلك لفعلت فى المرة الثانية كما تفعل الآن .

الجدة : فللقط سبعة أرواح ، ومع ذلك فهو لا يعرف إلا صيد الفيران .

ماركو : عدنا مرة أخرى إلى هذا النقاش ! لاتستفزينى يا جدة ... لاتستفزينى ... ولا تهيجى لسانى .

الجدة : أما لسانك فلك أن تعلقه على مسمار فى جدار ... وإلا فأى جدوى منه ؟ ! (لحظة صمت . الجدة تواصل فركها لحبات البسلة وهو يتأمل نموذجاً صغيراً لمركب من خشب أبيض لم يتم نحته بعد) أأنت مقدم على طلائه ؟

ماركو : لا ، فهذا النموذج بدأ بصنعه السيد خوردان ، ويود أن يقوم هو بإتمامه بنفسه قبل أن تحين ساعة الوداع .

الجدة : لا تتحدث عن ساعات الوداع . ستحين هذه الساعة دون أن تدعوها أنت . متى ستقلع السفينة ؟

ماركو : حينما يحل الليل .

الجدة : بهذه السرعة ؟ ومع قصر ساعات العصر هنا ؟ لماذا قدر الله أن تأتى اليوم هذه السفينة الموعودة ؟

ماركو : إن موعدها المعلن عنه من قبل هو اليوم .

الجـــدة : لقد كان فى وسعها أن تضيع فى مياه البحر أو تمر على قريتنا دون أن تعرج .

ماركو : لقد بدأت تحبين ضيفك حتى إنك لتتحسرين على فراقه .

الجـــدة : ومن الذى لم يشعر نحوه بالحب ؟ إن كل أهل القرية قد أصبحوا أصدقاء له ، وهو لا يلتقى بأحد منهم إلا وقابله بكلمة طيبة . وحينما يجلس مع كهول القرية فى الفناء المطل على السور فإنه لا يلبث أن يبدو كما لو كان واحداً منا .

ماركـــو : هذا صحيح ، فهو يعرف كيف يحمل الناس جميعاً على حبه ، ثم إنه لا يخلو من مهارة وذكاء . فقد تعلم خلال هذين الأسبوعين كيف يلقى بشباك الصيد إلى البحر كأمهر من يعيش هنا من الصيادين .

الجـــدة : وهو دائماً طيب النفس محب للمرح ، وهو ألوف يتبسط مع الجميع مع ما رآه من بلاد العالم وأحاط به من العلم !

ماركو : لا ... وقوفاً عند هذا الحد ! فمن هذه الناحية لا أوافقك على ما تقولين . أما عن الرجولة والطيبة فلك أن تقولى ما تشائين وأما عن المعرفة ... المعرفة

الحقة فإنه لا يعلم شيئاً عن أى شيء .

الجدة : عجباً . أتراك أنت من يستطيع أن يلقنه العلم ، أو يلقى عليه الدروس ؟

ماركو : ماكان ذلك غريباً ، ولا كانت هذه هى المرة الأولى التى ألقنه فيها درساً . ولماذا نبعد ؟ إنه رأى فى هذا الصباح تلك الزهور البيض التى تنبت فى طحلب السقف فسألنى ووجهه يكتسى بعلائم الجد : من الذى يقوم بزرع الزهور فى سقف الغرفة ؟ ولكن من سيكون يا سيدى ؟ الريح !

الجدة : ياله من دليل ! كأنما ليس فى ذهنه أشياء كثيرة يحتفظ بها أهم من هذا كله .

ماركو : نعم . نعم . مدارس كثيرة ، وكتب أكثر ، ولكن الحقيقة هى أنه لا يعرف كيف يفرق بين شجرة سرو وشجرة صفصاف ، ولا يستطيع التأكد من هبوب عاصفة أو لا من مراقبة طيور الماء فى تحليقها ، ولا متى سيحل الليل من ملاحظة مدى اعوجاج سوق الحشائش والأعشاب . إنه إذا أراد أن يعرف الوقت فلابد له من أن ينظر إلى الساعة . ويسمون هذا علماً ؟ إن العلم إذن هو ما لدى الساعة نفسها .

الجـــدة : ماذكرته هو أشياء ربينا نحن على معرفتها هنا، فكل منا يعرف ما تشتمل عليه بلاده .

ماركو : نعم ... اتركيه إذن ليلة فى أعماق الغابة ولننظر ما إذا كان قادراً على الخروج منها مهتدياً بنجوم الليل . أم ستقولين الآن إن بلاده ليس فيها نجوم ؟

الجـــدة : ومن يدرى ؟ فلعلها نجوم أخرى ...

ماركو : (فى دهشة) : أخرى ؟ وهل هناك نجوم أخرى ؟

الجـــدة : ربما ... هذا ما أقول أنا .

ماركو : (مطمئناً بعض الشىء) آه ! حسناً . أما ما أقول أنا فهو أنه قد توجد نباتات أخرى تختلف عما لدينا ، وقد تكون هناك لغات وطرق أخرى فى الكلام ، فكل هذه أشياء مما يوجد هنا على سطح هذه الأرض. أما النجوم فهى هناك فى أفق السماء ، وليست فى الدنيا قوة تقدر على تحريكها . إن الذى دق نجوم القطب هناك كان يعرف مدى ما يحتاج إليه صيادو السمك . (تصل إســتيلا فى نشاط من يقدم لتوه من الحقل ، وهى تحمل على ذراعها سفطاً تغطيه أوراق الشجر)

(الجدة وماركو وإستيلا)

إستيلا : أى قوة تنصب بها أشعة الشمس بعد وقت طويل من الفتور والضعف ! إنها تنهال على فروع الصنوبر كما لو كانت سياطاً حامية .

الجدة : أتيت وحدك ؟ ...

إستيلا : إن ريكاردو قادم الآن . لقد كان عليه أن ينزل لحظة إلى الميناء .

الجدة : ما الذى أحضرته معك ؟

إستيلا : توت برى . إن أشجار الغابة ممتلئة به ، ولكن ينبغى أن يجثو المرء على قدميه لكى يجمعه ، فهو يعرف كيف يختبىء بين الأوراق كما تفعل ثمار « الفراولة » المذعورة .

الجدة : وهل تعجب ريكاردو ثمار هذا التوت ؟

إستيلا : ومتى رأيت شيئاً لا يعجبه هنا ؟ بل إنه يكاد يسبح بحمد الهواء هنا على ما يعبق به من عطر ومن ملح . ما أشبهه بأعمى رد إليه بصره فبدأ يكشف العالم المحيط به . وإنى أذكر أنه حينما رأى قوس قزح لأول مرة فى المساء أقبل ينظر إليه كما لو كان ينظر إلى معجزة . والآن كنت أراه يأكل ثمار التوت وقد لطخ بعصيرها وجهه كله كأنه صبى صغير) تضع السفط على المائدة

وتلتفت إلى العم ماركو) . اذهب فأدركه هناك فى الميناء فلعله يحتاج إليك فى شيء .

ماركو : حسناً . إنى ذاهب ... (يتوقف لحظة لدى الباب) لى سؤال أود أن ألقيه عليك يا إستيلا : هل كان السيد خوردان يعرف ماهو ثمر التوت البرى ؟

إستيلا : لا ... لماذا ؟

ماركو : (ناظراً إلى الجدة فى اغتباط نظرة ذات مغزى) : لا ... لاشيء ! هو رغبة فى الاستطلاع فقط (يخرج).

(إستيلا والجدة)

الجـــدة : لماذا نزل إلى الميناء فى مثل هذا الوقت المبكر ؟

إستيلا : ليدبر أمر تذكرة السفر وليودع الأصدقاء . لقد أزفت ساعة الوداع .

الجـــدة : الوداع ! لعن الله من اخترع هذه الكلمة ! ينبغى على الناس أن يصلوا دائماً ، وألا يرحلوا أبداً .

إستيلا : لقد كان من المقدر أن تأتى هذه الساعة يا جدتى ، وكنت أنت تعرفين ذلك منذ أول يوم .

الجدة : كذلك كل منا يعرف منذ أول يوم أنه سيحل عليه الموت . ولكن هذا ليس عزاء حينما تأزف ساعته .

ر : إنك ستتعودين مرة أخرى . فإن أسبوعين لا يعتبران وقتاً كافياً لتغيير مجرى حياة .

ـــدة : إن الوقت رهين فى قياسه بمدى ما يتضمنه ، وقد كان هذان الأسبوعان حافلين إلى أبعد حد ممكن . فماذا تريدين منى الآن ؟ أن أنظر إليه وهو راحل دون أن أفعل شيئاً إلا رفع منديلى والتلويح به متمنية له رحلة سعيدة ، كما لو كان الأمر بهذا القدر من السهولة ؟

ستيلا : إن الذى أطلبه إليك هو أنه إذا أحسست بشىء فلتتعلمى كيف تكتمينه وتصمتين . إن الرجال يجيئون ويذهبون . وأما النساء فيبقين حيث كن. هذا هو القدر المكتوب علينا .

حـــدة : أتنوين أن تقولى لى إنك مسرورة جداً برحيله ؟ هو هذا ما أردت أن تقولى ؟

: ليست هناك سفينة تقلع إلا وتخلف وراءها حزناً .

: وأنا أقول لك إننى رأيت مئات من السفن مقلعة ولم أشعر بعدها بمثل ما أشعر به اليوم . قد يكون الذنب ذنبى . إذ ما كان لنا أن نحمل الحب إلا للشجر ، فالشجر دائماً باق ثابت فى مكانه هنا ، وأنت دائماً

تحسين بالثقة فى أنك راحلة قبله .

إستيلا : (فى عصبية) : كفى ياجدة ! إن حياة ريكاردو هناك ، وحياتنا نحن هنا . ولعل هذا هو الخير للجميع :

الجـــدة : أنا لا أقول إنه ينبغى أن يبقى ، إذ أنا أعرف أن المستحيل مستحيل . ولكن بين هذا وبين ألا أشعر بالأسف لفراقه ... إن البيت قد أصبح منذ وصوله وكأنما قد فتحت فيه نوافذ جديدة من كل ناحية والآن ... (تقترب من إستيلا وتواجهها ناظرة إليها نظرة فاحصة) قولى لى شيئاً بين امرأة وامرأة يا إستيلا . لو كنت تستطيعين وقف هذه السفينة ...

إستيلا : (فى لهجة حازمة) ... لما فعلت شيئاً من أجل وقفها . إن ريكاردو عليه أن يرحل . هذا هو الشيء الوحيد الذى أنا متأكدة منه . وليته كان قد واصل رحلته فى تلك الليلة نفسها .

الجـــدة : هل لديك شيء ضده ؟

إستيلا : لا ، ولكن ضدى أنا ، وهذا أسوأ . ألا ترينه أنت ؟ لقد كنت من قبل أعرف على الأقل ما أريد ، وكنت أعرف أننى لن أرغب فى غدى إلا ما أنا راغبة فيه يومى . أما الآن فلست قادرة على أن أفكر فى شيء

تفكيراً مطمئناً ، ولا الدم الذى يجرى فى عروقى ينبض كما كان فى هدوء ، بل أشعر كأنما هناك من يطل من وراء كتفى لينظر إلى ما أفعل . أنا لا أريد البقاء هكذا ! إننى أحتاج إلى أن أنعم بالسلام مع نفسى كما كنت : مجداف معلق على الباب وأنا جالسة بين يديه أنتظر . هذا هو كل ما أريد .

الجدة : خيالات وأوهام . إنك تلقين على نفسك ذنوباً من أجل أشياء لم يكن لها وجود حقيقى ، بل كانت خواطر عبرت على خيالك عبوراً .

إستيلا : لست أنا وحدى التى تشعر بهذا ، فقد كنت أحس حينما كنت أجلس معه بأن المرح الذى كان يسود الجو إنما كان زائفاً مصطنعاً . إنه هو بدوره قلق معذب كأنما هناك شىء يقضى مضجعه ويخز ضميره .

جدة : لا أظنك تريدين القول بأنه يكتم نية سيئة . إن ريكاردو رجل كامل الرجولة وهو صديق حقيقى مخلص لك .

إستيلا : لا ياجدتى . إن الأصدقاء المخلصين يتحادثون فى اطمئنان وهدوء بال وينظر بعضهم إلى وجوه بعض فى غير تستر ولا التواء . أما نحن فلم يكن بيننا ذلك ، كان هناك شىء قاتم مظلم يفصل دائماً بينى وبينه .

الجـــدة : ولكنك لم تحدثيني من قبل أبداً بذلك .

إستيلا : اليوم مثلا كنا نجمع ثمار التوت بين خمائل الحشائش وكنا نضحك فى مرح ، وفيما نحن فى ذلك إذا بأيدينا تتلاقى دون قصد ، وفجأة انقطعنا عن الضحك والكلام وبقينا صامتين دون أن يجرؤ أحدنا على رفع بصره إلى صاحبه ... لقد كان ما وقع أشبه ما يكون بحجر ألقى على شجرة تملأ أغصانها الطيور . أما أنا فقد أعرف لماذا لا أجرؤ على رفع عيني إليه . ولكن ... هو ؟ لماذا كان يلوذ بالصمت المطبق ؟

الجـــدة : مادام الأمر كذلك فربما كنت محقة فيما ذكرت . إن الشيء الذى لا يمكن له أن يستمر فمن الخير أن يوضع له حد فى الوقت الملائم .

إستيلا : شكراً لك يا جدة . هذا هو ما كنت أنتظر سماعه منك . (تتنفس الصعداء . لحظة صمت) هل الملابس جاهزة ؟

الجـــدة : هى فى الطابق الأعلى ، لقد كويتها بماء يحمل عطر هذه الزهور ... حتى تبقى لديه ذكرى من هنا .

إستيلا : هل أقفلت الحقائب ؟ .

خـدة : هذا ليس عملى أنا . أما فى فتح حقائب القادمين فخذى منى كل ما تشائين من عمل ، وأما إغلاقها فإنى أجد نفسى من الشيخوخة والضعف بحيث لا أستطيع .

بستيلا : (متجهة إلى السلالم) : لقد كنت دائماً أكثر من فى هذا البيت شباباً وأشدنا قوة ، فلا يخطر على بالك أن تنسى هذه الحقيقة فى نهاية المطاف .

(تصعد)

خـدة : لاتكترثى لما أقول ، فإنه حتى لو شعرت بشىء من الضعف أو العجز لحرصت على كتمانه حتى لا يلحظه أحد (تبقى وحدها ، وهى تغمغم قائلة بينما تجمع حبات البسلة وترفع السفط) . وإنى لأشعر الآن فعلا بشىء من ذلك . ولكن ... أليس هناك بد من حلول ساعة الوداع ؟ إذن « فسفرا سعيداً أيها الصديق ... ولتمض فى طريقك غير معرج على شىء ولنر ما إذا كنت ستثبت لنا من جديد أن الدنيا على هيئة الكرة » . وبعد ذلك فلتملىء العيون بالدموع ولتنل من الصدر غصته ، ثم ... ليكن كل شىء عودا على بدء ... على طول الأيام إلى أبد الآبدين . آمين (يصل ريكاردو ووراءه العم ماركو)

(الجدة وريكاردو وماركو)

ريكاردو : سلاماً ياجدة . أكنت تتحدثين إلى نفسك ؟ .

الجـــدة : عليّ أن أتعود هذا من جديد . فليس للجميع هنا مثل صبرك .

ريكاردو : أما بالنسبة لى فلم يكن إنصاتى إليك من الصبر فى شيء . لقد كنت دائماً أشعر بلذة كبرى فى الاستماع إليك . أقولها لك فى صدق وإخلاص .

الجـــدة : على الأقل كنت تحسن المداراة والمجاملة . وعلى كل حال فماذا كان يكلف من العناء الإنصات إلى ما أقول ؟ إننى لا أطلب إلى أحد أن يجيبنى على سؤال . بل لست أجشم أحداً حتى مؤونة الاستماع . يكفينى أن ينظر من أحدثه إلى ثم يهز رأسه من وقت لآخر . أترى ذلك من الإسراف فى المطالب ؟

ريكاردو : إن أكثر ما تخافينه هو الصمت . أليس كذلك ؟

الجـــدة : نعـــم . هذه هى الكلمة : الخوف . ولكن ألست محقة فى خوفى من الصمت ؟ متى يصمت البحر ؟ حينما توشـــك العاصـــفة على الهبوب . متى تصمت الغابة ؟ حينما يخترقها رجال حملوا على أكتافهم بنادق الصيد . إن السكون لا يسود مكاناً

إلا إذا كان هناك خطر يطفو فى الجو ويتشبع به الهواء . (مستطردة فى لهجة حالمة تفيض بالحنين) إنى أذكر ما وقع لى مرة وكنت أيامها طفلة صغيرة . كنا تسعة إخوة : ثمانية رجال وأنا . وفى ليلة من الليالى حدث فى دارنا شىء لست أذكر الآن تفصيله ، ولكنه كان على كل حال شيئاً رهيباً فاجعاً . كانت أمى جالسة تتحدر دموعها فى صمت ، وكان أبى يشد قبضتى يديه فى عصبية وغضب على قماش مفرش المائدة ، وكان إخوتى الثمانية الرجال شاحبى الوجوه مطرقى الرؤوس وقد أثبتوا أعينهم فى أطباقهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة . كان الجميع فى صمت يقبض الصدور ولم يكن أحد ليجرؤ حتى على مجرد التنفس ، وكان السكون الذى يشيع فى المكان بارداً إلى حد بدا معه كأنه ينسكب مع الدم فى العروق . ولم يكن يقطع هذا الصمت الهائل إلا صوت واحد : وقع قطرات من الماء كانت تتحدر من إبريق فخار : « جلو جلو » ... « جلوجلو » ... « جاوجلو » ... وبفضل هذا الصوت لم أنفجر فى البكاء . وتأمل أنت الآن كيف جرت الأمور : لقد مضى أكثر من ستين سنة على الشىء الرهيب الذى وقع فى بيتنا ، وأنا الآن

قد نسيت ماهية هذا الشيء وكيفية وقوعه ، ولكن الـــذى لم أنسه أبداً ولن أنســـاه ، وما أشكر الله عليه إنما هو وقع قطرات الماء وهى تتحدر من الإبريق ، فقد كان هذا الصوت هو الوحيد الذى جرؤ على الكلام حتى يزيل عن قلبى الشعور بالخوف (ريكاردو يضـــغط بكفيه على كتفيها فى تأثر وحنان ؛ لحظة صمت) .

ريكاردو : ياجدة ! ...

ماركو : يالها من قطرات ماء ! ... إن ماتحتاجين إليه إنما هو سيل منهمر لا ينقطع عن الانسكاب ...

الجـــدة : (تلتفت إليه بحركة مفاجئة) : نطقت أخيراً !... لقد كنت أستغرب أن تدع مثل هذا الحديث يمضى دون أن تعقب عليه بما عودتنا إياه . إننى كثيراً ما كنت أقول : إنك فى طفولتك كنت أشبه ما تكون بإنسان نصف متوحش ... وما أكثر ما نموت منذ ذلك الوقت ! (ريكاردو ويتأمل نموذج المركب الذى قام بصنعه ، ثم يتناوله ويصقل سطوحه بمبرد) . أمقدم أنت الآن على مواصلة العمل ؟ .

ريكاردو : لقد كان بودى أن أنتهى منه ، ولكن يظهر أنه لم يعد هناك وقت كاف .

... : لقد كنت مقبلا على العمل فيه بحماس واهتمام شديدين يبدو معهما كأنك لم تقم من قبل بعمل كنت أرغب فيه وأحرص عليه من هذا .

...اردو : ربما كان هذا هو السبب بالفعل .

...ركو : ما الذى كنت تشتغل به فى بلادك ؟

...ردو : كنت أقامر فى البورصة .

...ـو : آه (لحظة صمت قصيرة) وبعد الانتهاء من هذا اللعب ما الذى كنت تشتغل به ؟

...كردو : إن البورصة ليست لعباً . إنها السوق .

...ركو : سوق ؟

...كردو : نعم ، ولكنها ليست مثل الأسواق التى لديكم هنا : فأنتم تبيعون السلع وتشترونها ، أما نحن فقد كنا نتاجر فى أسماء السلع .

... : هذا شىء لا أقدر على فهمه . كيف يمكن لك أن تبيع قمحاً أو تشتريه دون أن يكون هناك قمح ؟

...ردو : أمر فى غاية البساطة ... انظر (يأخذ من الصوان أربع كؤوس ويرصها فى صف على المائدة) على سبيل المثال : أنت قد زرعت قمحاً لن تتمكن من حصاده وجمع محصوله إلا فى العام القادم . ولكن

باعتبارك محتاجاً للبقاء حياً حتى ذلك التاريخ فإنى أقدم إليك قرضاً بمبلغ مائة كورونا على حساب قمحك (يرفع الكأس الأولى ثم يضعها على المائدة بعيدة عن الأخرى) والآن هذا هو خطاب الضمان للقرض الذى سأمنحاك إياه . مفهوم ؟

ماركو : مفهوم .

ريكاردو : حسناً . والآن تتبع ما أقول . إذا أتى الصيف ووقع شىء أدى إلى ضياع محصولك فإن الأمر ليس خطيراً .. لا يهم ، فى وسعك أن تدفع لى بدل القمح نقوداً من الفضة بمبلغ المائة كورونا . أليس كذلك ؟ .

ماركو : نعم ... هكذا .

ريكاردو : (يرفع الكأس الثانية ويضعها إلى جوار الأولى) هذه هى المائة كورونا التى تساوى ثمن القمح . ولكن لما كانت الفضة قليلة نادرة فإن البنك يسحبها ويعوضك عنها بورقة كتب عليها « صك بمبلغ مائة كورونا » (يرفع الكأس الثالثة ويضعها مرة أخرى) هذا هو الصك . فإذا جاءت ساعة الدفع ولم يكن الصك بين يديك فلا عليك من هذا ، لا يهم ، بوسعك أن توقع على وثيقة تتعهد فيها بأداء الدين المطلوب

(يرفع الكأس الرابعة ويضعها) هذه هى الوثيقة . وهنا تبدأ المعجزة : (يشير بسبابته إلى الكؤوس واحدة واحدة) مائة كورونا قيمة للقرض ، ومائة قيمة النقود الفضية ، ومائة قيمة الصك ، ومائة قيمة الوثيقة . أى أن هناك أربعمائة كورونا فى السوق ، مع أنه ليست هناك حبة قمح واحدة حقيقية . (ينفض يديه) هل فهمت الآن ؟

ركو : (مقتنعاً) الآن فهمت . لقد مر علينا فى القرية منذ سنتين واحد كان يقوم بنفس العمل ، غير أنه كان يستخدم قبعة طويلة لامعة كان يخرج منها أسراباً من الحمام . ولهذا فإن ما أنا مشوق إليه هو معرفة سر الخدعة .

يكاردو : ليس هنـــا أى خدعـــة ياماركو . أعنى أن أقول ... الحق أنى لا أدرى ..

ـسادة : (تجمع الكؤوس وتعيدها إلى موضعها) وهل هذا هو البورصة ؟ يا إلهى ! ... ما أعجب ما يخترعه الناس حينما لايجدون ما يعملونه !

ـاردو : يبدو لى أنكما لم تأخذا الأمر مأخذ الجد .

ـسادة : قد يكون ذلك لأننا لم نعتد هذا الكلام . إننى لا أعرف

كيف تمضى الأمور عندكم فى الجنوب . ولكن القمح القليل الذى يوجد فى قريتنا هنا قمح حقيقى لازيف فيه ، والجوع كذلك حقيقى لازيف فيه . (يسمع صوت إستيلا مقترباً وهى تصيح نازلة سلالم الدرج) .

إستيلا : جدتى ! .... جدتى ! ... ألا تسمعون ؟.

الجـــدة : ماذا ؟ (يصيخ الجميع السمع . إستيلا تفتح الباب . يسمع دق أجراس حادة متوالية)

إستيلا : إنها أجراس الفنار . إن هناك شخصاً يتهدده خطر محقق !

الجـــدة : ولكن ... فى البحر ؟ هذا مستحيل . إن مراكب الصيد لن تخرج إلا فى صباح الغد .

إستيلا : ربما كانت بعض أمواج البحر أغارت على بعض الشطآن ، أو لعله حريق ، اجر ياعم ماركو فاستفسر لنا عما وقع .

الجـــدة : أتأمرين هذا أن يذهب ؟ وتعتقدين أنه سيأتينا بجلية الأمر ؟ يالك من متفائلة !

ريكاردو : لاعليك ... سأذهب أنا .

الجـــدة : لتبق أنت هنا ، فإن لديك الكثير مما ينبغى عليك

عمله ، والوقت متأخر ، فالشمس موشكة على الغروب . لنذهب نحن (تخرج بسرعة هى والعم ماركو ، إستيلا تتسمع وهى على الباب)

(إستيلا وريكاردو)

ريكاردو : دعينى أذهب معهما ، فقد يكون هناك ما أعين على عمله .

إستيلا : (تستوقفه بإشارة من يدها وتدعوه إلى السكوت وهى تعود إلى التسمع) دقات الأجراس تسمع الآن متباعدة ، وأصواتها تخفت قليلا قليلا ، أما إذا كانت تحذيراً من خطر فإن الخطر قد مضى . وأما إن كانت نذيراً بوقوع كارثة فإن الكارثة قد وقعت ولم يعد لردها من سبيل (تغلق الباب) لقد كان يوماً جميلا بديعاً إلى حد كنت أستكثر معه أن ينقضى دون أن يحل ما يعكر صفوه .

ريكاردو : إننى لم أشعر بسعادة منذ أن أتيت إلى هنا كما شعرت فى هذا اليوم . لقد كان يبدو كما لو كان يوم عيد : الميناء قد ملأته المراكب بأشرعتها البيض ، والشباك قد جمد على خيوطها الملح البراق . إننى لم أر البهجة تملأ نفوس الناس كما رأيتها اليوم .

إستيلا : لقد كان أول يوم مشمس فى السنة . والصيادون يستعدون للخروج إلى البحر . إن تحليق طيور الماء يدل على أن أسماك المياه الحارة قد أوشكت على الاقتراب قادمة من الجنوب . غداً ستخرج جميع المراكب إلى البحر موغلة فى مياهه . (تخفض صوتها وهى تقول) جميع المراكب ... إلا واحداً (تبدأ الشمس فى الغروب) .

ريكاردو : ما الذى يمكن أن يحدث حتى تدق هذه الأجراس ؟

إستيلا : ما أكثر ماسمعنا دقات الأجراس من قبل ! ... إن الحياة هنا ليست إلا خطراً يتجدد كل يوم .

ريكاردو : وددت ألا أرحل دون أن أعرف حقيقة ماجرى .

إستيلا : أيهمك ما وقع إلى هذا الحد ؟ إن هؤلاء الناس المقيمين هنا لم يكونوا يهمونك فى شىء منذ أسبوعين فقط !..

ريكاردو : لأنى لم أكن أعرفهم حق المعرفة ... لقد صدق من قال لى يوماً : «إن الذى يؤلمه ما يعانيه الآخرون فلا بد له أولا من أن يكون ذا خيال يستطيع أن يتصور الألم » . إننا قد نعرف مثلا ذات يوم أن هناك صياداً فى إحدى قرى الشمال بوشك على الموت، فنهز أكتافنا فى غير اكتراث. وفى يوم آخر نقرأ فى الصحف أن

جبهة من جبهات القتال قد سقط فيها ثلاثون ألف رجل، فنبقى فى مجالسنا نرشف قهوتنا فى هدوء كأن لم يحدث شىء ، إذ أن هذه الأرواح الثلاثين ألفاً لاتعنى بالنسبة لنا إلا ... رقماً من الأرقام ، وما ذلك لأن قلوبنا قاسية متحجرة ، وإنما لأن خيالنا فى عداد الموتى.

إستيلا : ولكن ... ألم تكن تعرف هذه الحقيقة من قبل ؟

ريكاردو : لا ... لقد كان من اللازم أن آتى إلى هنا حتى أتعلم مثل هذا الدرس البسيط : أن حياة رجل واحد تعنى حياة البشر جميعاً .

إستيلا : (ناظرة إليه فى امتنان) : كم يعجبنى أن أسمع منك هذا الكلام ! أتعرف ما الذى يدور أحياناً فى خلدى ؟ أنك ولدت هنا بيننا ، ثم عشت بعد ذلك سنوات طويلة بعيداً عن هذه الأرض بعد أن فقدت ذاكرتك ، وأنك الآن قد بدأت تتذكر أرضك وأهلك من جديد !

ريكاردو : ليت الأمر كان كذلك . ليتنى أستطيع أن أحس بأن هذه هى أرضى وأنه يمكن لى أن أقضى مابقى من حياتى فيها .

إستيلا : لاتدع نفسك فريسة لأوهام خادعة هى ثمرة أيام

قليلة قضيتها هنا . كل ما فى الأمر أنك أمضيت عطلة سعيدة مدة أسبوعين فى قرية وافق وصولك إليها أياماً تملأها أصوات الظباء وهو تخور فى الغابة وليالى بيضاء مرحة . ولكنك لم تعرف بعد ما يعنيه شتاء يدوم ثمانية أشهر ، يغطى خلاله الثلج المتجمد زجاج النوافذ، ولا تلك الليالى التى لا تبدو لها نهاية... فالليلة منها تستمر ثمانى عشرة ساعة منذ سقوط أول عاصفة من الجليد حتى غناء العصافير .

ريكاردو : ولماذا لا أستطيع أنا تحمل ما تقدر على تحمله امرأة ؟

إستيلا : أما بالنسبة لى فالأمر يختلف. لقد تعودت منذ طفولتى، ولدى من الإيمان ما يعيننى على التحمل .

ريكاردو : وما هى الأشياء التى بها تؤمنين أنت؟ فإننى أود أن أشعر بدورى بمثل هذا الإيمان .

إستيلا : إنها فى الحقيقة قليلة ولكن عقيدتى فيها عميقة راسخة، وأولها أننى أومن بأن الحياة وإن لم تخل من مرارة واجب علينا حمل تبعته ، وأومن بأن فى البحر والبر كل ما نحن فى حاجة إليه ، وأومن بأن الله هو الخير المحض . فى عقيدتى هذه ما يكفينى .

ريكاردو : إستيلا ... (يضغط بكفه يدها على المائدة . يتزايد ظلام الغرفة)

...يلا : لقد حان موعد إضاءة المصباح ... تماماً مثل اليوم الذى وصلت فيه إلى القرية .

..يكاردو : أتسمحين لى بأن أقوم أنا بإضاءته اليوم ؟

..ستيلا : أشكرك . (ريكاردو يشعل المصباح . يسمع من الخارج صوت نفير الباخرة مهيباً بالمسافرين إلى الصعود ، تنتاب إستيلا رجفة ثم تتمالك نفسها) إنه نفير الباخرة . كنت أظن الوقت مازال مبكراً .

..يكاردو : إنه النفير الأول . مازال هناك وقت .

..ستيلا : وقت لماذا؟ (فى ألم) ، اذهب من الآن ياريكاردو ! إننى لا أعرف أساليب الوداع . ما الذى يمكن قوله حينما لا يبقى على الفراق إلا دقائق معدودة ؟

..يكاردو : لست أنت من ينبغى عليه أن يتكلم يا إستيلا . الذى يجب عليه الكلام الآن إنما هو أنا (يدنو منها) لقد أتيت من بعيد لكى أقول لك شيئاً ... شيئاً واحداً فقط ... ولكن كل مرة كنت أهم فيها بالكلام إذا بعقدة من الخوف والخجل تخنق زورى وتحول بينى وبين النطق .

..ستيلا : إذا كان ماتهم بقوله شيئاً مؤلماً حزيناً فلا تقله . خير لنا أن نفترق هكذا كما يتفرق الأصدقاء الخلص .

ريكاردو : لم يعد فى وسعى المزيد من الكتمان . أنا فى حاجة إلى الكلام وفى حاجة إلى أن تنصتى أنت لما أقول . عليك أن تسمعينى مهما كان فى ذلك من إيلام لكلينا .

إستيلا : (فى جزع غريزى) : تكلم !

ريكاردو : الأمر متعلق بموت بيتر ... (إستيلا تحول عنه ناظريها) لقد قلت أنت الحقيقة منذ أول يوم التقينا فيه : إن هذا الموت لم ترده مشيئة الله . إذن فاسمعى ، لقد كنت على حق يا إستيلا . إنه لم يمت ، ولكنه قتل بيد رجل ، وهذا الرجل موجود هنا .

إستيلا : (فى رد فعل يطفح بالألم) : كيف اكتشفت الحقيقة؟ إننى لم أتهم أحداً . بل أنا لا أستطيع اتهامه . ولو وجه إليه أحد هذه التهمة لأعلنت أنا مائة مرة أنها كذب فى كذب ! وما كنت لأفعل غير ذلك ولو أنه كان فى موت بيتر تحطيم حياتى . لماذا يارب جعلت أختى وابنها بينى وبين القاتل ؟ ! ...

ريكاردو : ولكن ... عمن تتحدثين ؟

إستيلا : عن كريستيان !

ريكاردو : وهل تشكين فيه ؟

إستيلا : ليتها وقفت عند حد الشكوك . ولكن لا ! لقد

تعرفت وأنا واقفة فى هذه النافذة على سترته الجلدية ، إننى بنفسى قمت فى فجر تلك الليلة بإزالة آثار قدميه بقرب المكان ، وما أكثر ما كنت أعض على يدى من الغيظ وأنا صامتة لا أفوه بكلمة بينما كانت تمزق روحى الكلمات المكبوتة . والآن أتريد يا ريكاردو أن تأتى الآن لإفساد كل مافعلت ؟ لا ياريكاردو ، لا تتكلم ... رحمة بذلك الطفل البرىء !

ريكاردو : أما وقد ذكرت ذلك فإننى أحوج إلى الكلام الآن منى فى أى وقت مضى ! ... فها أنذا أرى تفكيرك إلى أين يتجه ، ولهذا فإننى لو تماديت فى الصمت لحظة لكنت أجبن الجبناء . (يمسك بيديها) إستيلا ! ...

فريدا : (من الخارج صائحة) : إستيلا ! ... إستيلا ! ...

إستيلا : (فى فزع مفاجىء) : إنها فريدا .... والآن ، أرجوك أن تسكت (تدخل فريدا وقد ألقت شالا على كتفيها ، وحملت فى يدها فانوساً تضعه على المائدة ، ثم تلقى بنفسها بين ذراعى أختها وهى تتنهد فى ألم شديد) .

(إستيلا وريكاردو وفريدا)

فريدا : إستيلا ! ...

إستيلا : هل وقع شيء فى بيتك ؟

فريدا : ألم تسمعى دقات أجراس الفنار ؟ لقد عرفت بعد ذلك جلية الأمر : كان كريستيان قد خرج ليجرب عجلة القيادة الجديدة التى وضعها لمركب صيده . ولكنه لم يكد يدور حول الرصيف الصخرى للميناء حتى علت أمواج البحر فجأة وألقته إلى الماء ثم قذفت به على صخور الرصيف فشقت الصدمة صدره كما لو كانت نهشة وحش مسعور .

إستيلا : وكيف حاله ؟ .. هل الإصابة خطيرة ؟

فريدا : هذا هو ما سألت عنه الجميع ، ولكن ليس هناك من يجيب على سؤالى بل كلهم يخفضون أبصارهم .. إننى أعرف ما الذى يعنيه صمت الرجال حينما يقفون هكذا حول الدم المراق !

إستيلا : وهو ؟ ... هو ؟

فريدا : إنه لاينطق إلا بكلمة واحدة ... هى اسمك أنت . إن من القسوة أن تتركيه يموت هكذا ... كريستيان يناديك ياإستيلا ، وهو لايريد الكلام مع أحد باستثنائك أنت (ترتمى على مقعد فتتهالك عليه فى إعياء وألم) .

إستيلا : معى أنا ؟ (متجهة إلى ريكاردو) هل لك أن تتركنا وحدنا لحظة ؟

ريكاردو : معذرة ... (يصعد إلى الطابق العلوى) .

إستيلا : (تنتظر قليلا حتى يختفى ريكاردو من المكان) أتدركين ما الذى يعنيه هذا يافريدا ؟ إذا كان كريستيان يشعر باقتراب الموت ويناديني أنا فليس لندائه إلا معنى واحد، هو أنه يريد أن يعترف لى بشيء (تنحنى على كتف أختها وقد اختنق صوتها) أكان هو حقا ؟

فريدا : (تتردد ثم تهز رأسها قائلة دون أن تنظر إلى وجه أختها) : هو ! ...

إستيلا : هل اعترف لك به ؟

فريدا : لم يكن بحاجة إلى أن يقول لى شيئا . أتذكرين عصر ذلك اليوم الذي تحدثت معك فيه عن هذا الأمر ؟.. لقد خرجت من بيتك رافعة الجبين فى كبرياء وأنا ألعنك ، ولكنى كنت أحمل شوكة الألم فى أعماق نفسى ومنذ ذلك اليوم لم أكف عن التفكير، وتداعت فى ذهنى الخواطر ! ... وحينئذ أدركت أشياء كثيرة : أدركت لماذا كنت لا أتوجه إليه فجأة

بالكلام حتى أراه يهز رأسه ويحرك جفنيه كما لو كان يهم بالاستيقاظ من حلم عميق ، ولماذا كانت « البيبة » تنطفىء كثيرا وهو يقبض عليها بأسنانه ، وفهمت السر فى هذا الأرق الذى كان يعذبه ليالى كثيرة كان يظل خلالها وقد شخصت عيناه إلى سقف الغرفة . ولكنى كنت مصرة على تكذيب الحقيقة ... كان الدم الذى يجرى فى عروقى

: مسكينة يافريدا ! ... لم أكن أتصور أنك تحبينه إلى هذا الحد !

: ولا أنا نفسى كنت أتصور ذلك . كنت أظن أن اكتشافى للحقيقة سيؤدى بى إلى الانفصال عنه ، ولكنى الآن فى هذه اللحظة بالذات وأنا أراه محطما يرتجف كأنه طفل ، وقد أثقله الشعور بالجريمة ... أنا الآن أعمق إحساسا بحبه من أى وقت مضى ! وبأننى سأظل أحبه على الرغم من كل شىء وفوق كل شىء ! ...

: سأعينه إذن على تحمل ما هو فيه مانحة إياه القوة الوحيدة التى أستطيع أنا أن أمنحها . لنذهب (تلقى على كتفيها شالا وتحمل الفانوس ثم تخرج مع أختها) .

: شكرا لك يا إستيلا ... أشكرك من أعماق قلبى ! (يظل المسرح خاليا عدة لحظات . ريكاردو ينزل من الدرج ويظهر على المسرح متجها إلى الباب وهو ساهم مفكر) .

: (يردد فى ذهول كالمخاطب لنفسه) : كريستيان ؟ كريستيان ؟ .. هل هذا ممكن ؟ (يتوجه إلى الباب

كما لو كان مقدما على اتباع المرأتين ... الضوء يخفت فى المسرح ويسود المكان جو من الغموض ، وتسمع من جديد تلك الموسيقى الغريبة التى كانت تعزف فى الفصل الأول من الرواية . يظهر على مدخل الباب الموصل الى الحديقة الرجل المتشح بالسواد) .

(ريكاردو والرجل المتشح بالسواد)

الرجل : مساء الخير يا ريكاردو خوردان !

رصة لكى تقوم بخداعى
الحقيقة الآن (يتقدم فى
نا قاتل بيتر أندرسون .
يوشك على الوقوع .
. لماذا أردت أن تقنعنى
ة ؟

تكون محقا لمجرد رفع

أجبنى !

ريكاردو : أنت ... هنا ؟ لقد فاتت ال
مرة أخرى ! إننى أعرف
عزم وتصميم) . لم أكن
إنك كنت تعرف ما كا
كنت تعرف الزمان والمكا
بأننى كنت مرتكب الجر

الرجل : تذرع بالهدوء ! فإنك لن
صوتك !

ريكاردو : ما الذى كنت تهدف إليه

ريكاردو : أنا لاتهمنى تجاربك فى شىء . إن الحقيقة الوحيدة الواضحة هى إننى لم أقتل . وكل مابقى بعد ذلك إنما كان من تدبيرك أنت .

الرجل : تدبيرى أنا ؟ لست أنا الذى يتصرف فى الحياة أو الموت ، وإنما هو ... الآخر (يشير بيده إشارة غامضة) هذه حقيقة يعرفها حتى الأطفال الصغار . كل ماهنالك أنكم أنتم يامن تقرأون كتبا كثيرة غالباً ماتنتهون إلى نسيان أبسط البديهيات .

ريكاردو : ومن الذى قتله إذن ؟

الرجل : ألم تعرف الحقيقة بعد ؟ إنه كما سمعت : كريستيان . كريستيان وحده .

ريكاردو : فإذا كنت أنت معترفا بذلك فما الذى تسعى إليه الآن من قدومك ؟ إننى برىء من تلك الجريمة !

الرجل : هنا موضع خطئك . صحيح أنك لم تقتل ، وأنا أوافقك على ذلك . ولكنك أردت القتل . وهذه هى الحقيقة ذات القيمة بالنسبة لى . فلعلك تذكر أيضا ماقلته لك فى ذلك اليوم من أن الأحداث المادية لاتهمنى فى شىء ، إذ أن عالمى الوحيد هو عالم الإرادة والنية .

ريكاردو : نعم ، ولكن عالمى أنا هو عالم الواقع والعمل .
ليس هناك على ظهر الأرض قانون ولا محكمة
يستطيعان عقابى على تفكير سيء عبر بذهنى .

الرجل : (فى استياء كأنما أهينت كرامته) : لحظة واحدة .
لنوضح الأمور . لست من أولئك المتنطعين المشتغلين
بحيل القوانين . أنا ممن يشتغلون بالأخلاقيات ...
ما زالت هناك طبقات ومقامات !

ريكاردو : سفسطة ! كيف أحمل تبعة شيء إذا كان كله
كله وهما من الأوهام ؟

الرجل : هذا هو ما ينبغى علينا أن نتحقق منه أولا . إن
يديك لم تباشرا القتل لأن كريستيان سبقك بثانية
واحدة . ولكن الحقيقة الواقعة هى أنك كنت تريد
القتل . صحيح هذا أم خطأ ؟

ريكاردو : صحيح .

الرجل : والمال الذى عاد إليك ثمنا لتلك الجريمة حقيقى هو
هو أم وهمى ؟

ريكاردو : حقيقى .

الرجل : والندم الذى كان يعذبك بعد ذلك والذى أوصلك
الآن إلى شفا الاعتراف ؟ وهذا الأمل الذى كنت

تمنى نفسك به وهو أن بيتر أندرسون قد يكون وغدا سيئ الخلق حتى تبرر أنت الجريمة أمام ضميرك ؟ وهذه الرغبة الطاغية التى دفعت بك إلى هنا كما تدفع سائر المجرمين دائما إلى المكان الذى ارتكبوا فيه جرائمهم ؟ ألم يكن كل ذلك صحيحا ؟ أليس من المدهش أن يتولد كل هذا العدد من الحقائق من أكذوبة صغيرة ؟

ريكاردو : الآن فهمت ... أكانت هذه هى تجربتك ؟

رجل : لا ، لم تكن إلا الجزء الأول منها فقط : وهو معرفة مدى القوة الخلاقة التى تتضمنها فكرة مجردة. ولكن بقى الجزء الثانى وهو الأهم : أعنى دفع ثمن الخطيئة .

ريكاردو : إننى مستعد للدفع .

رجل : وبماذا ؟ بضربات تدقها على صدرك ودموع تذرفها تعبيرا عن الندم ؟ لا يابنى ! إنها حيلة قديمة قد ابتذلت لفرط سهولتها !

ريكاردو : أنا متنازل عن كل ما أعطيتنى . خذ نقودك القذرة حتى آخر قرش منها .

رجل : ولا هذا يكفينى . فالنقود لم تعد تنفعك فى شىء منذ زمن طويل .

ريكاردو : ما الذى تريد إذن ؟ وعلام كان مجيئك الآن ؟

الرجل : لا لشىء إلا لأذكرك بأن العقد الذى تم بيننا مازال قائما . (يخرج العقد من الحافظة الجلدية) ها هو ذا توقيعك على نيتك فى ارتكاب جريمة وحينما تأتى «الساعة» فإننى سوف أقدم هذا الحساب .

ريكاردو : (مخلدا للتفكير لحظة) : وما الذى يقوله هذا العقد؟

الرجل : كلمات قليلة ، ولكنها واضحة : «ريكاردو خوردان يتعهد بقتل رجل» .

ريكاردو : بلا دماء ...

الرجل : بلا دماء .

ريكاردو : حسنا . إن خير وسيلة للخلاص من عقد إنما هى تنفيذه . لقد وعدت بالقتل . وسأقتل .

الرجل : (ينظر إليه فى دهشة) : من ؟

ريكاردو : نفس الرجل الذى وقع هذه الورقة . أتذكر ذلك اليوم الذى أتيت فيه إلى مكتبى ؟ لقد التقيت حينئذ برجل جبان مستعد لارتكاب أى جريمة طالما لم يكن حاضرا لارتكابها ، رجل يستسهل التجارة فى عرق الآخرين وهو لم يبذل قطرة عرق ، رجل لايهمه أن يلقى فى ماء البحر بمحاصيل كاملة دون

أن يفكر فى جوع من يبذلون حياتهم فى إنتاجها وجمعها . هذا الرجل هو الذى كنت فى صراع معه منذ أن أتيت إلى هنا ، وسأظل فى صراع معه طول مابقى لى من حياة ، واليوم الذى لا يبقى فيه من روحى أثر لذلك الرجل هو اليوم الذى يمكن أن أقول فيه : إن ريكاردو خوردان قد قتل ريكاردو خوردان ... بلا دماء ! (الشيطان يخفض رأسه وقد بدا عليه الاضطراب والحيرة) . ها نحن الآن فى عالم النية والإرادة الذى أتيت تحدثنى عنه ! إنك لم تكن تنتظر هذا الجواب . أليس كذلك ؟

رجل : بصراحة ... لم أكن أنتظره . إن الذى وقع هذا العقد كان يختلف عمن أرى الآن كل الاختلاف . فقل لى إذن : من الذى وهبك هذه القوة الجديدة ؟ هى ؟

كاردو : نعم . هى . إنى حتى دخولى إلى هذا البيت لم أكن أعرف ما الذى يعنيه لفظ « بيت » . وحتى تعرفى على إستيلا لم أكتشف ما هى المرأة .

جل : هذا هو ما كنت أخشاه : الحب . إن عيبى الأكبر هو أننى دائما أسهو عن تقدير هذه الناحية الصغيرة ، ودائما تكون هى التى تجلب على الخسران .

ريكاردو : ما الذى تنتظر الآن ؟

الرجل : لا شيء ... الآن لم يعد فى وسعى أن أحاول معك شيئا إلا ذهب أدراج الريح . خذ عقدك . خسارة !. لقد كانت صفقة بديعة مغرية !

ريكاردو : مسكين أنت ياشيطانى العزيز . مالك قد أصابك الوجوم ؟

الرجل : (فى يأس مستسلم متماسك) آه ... ليس للأمر أهمية . إن لك أن تتصور مدى ما قد نتعرض له فى مهنة قاسية صعبة مثل مهنتى من ألوان الفشل ... هذا شيء قد تعودت عليه ، ولكن الحق هو أنى لم أفشل من قبل فى شيء قدر فشلى هذه المرة . لقد أتيت لكى أضل روحك ، ولكنى كنت أنا أنا الموجه لك دون أن أقصد إلى طريق الخلاص . شيء أستحق معه أن أحال إلى المعاش على الفور ! (يتوجه إلى الباب المؤدى إلى الحديقة . ثم يتوقف فجأة) هل لى أن أرجوك خدمة أخيرة ... رجاء من صديق إلى صديق ؟

ريكاردو : قل .

الرجل : ألا تقص على أحد مادار بيننا . فالناس يعجبهم دائما

أن يرونى فى موقف يبعث على السخرية والضحك ، بل إن أكثرهم نفاقا لايتورعون عن أن يستنبطوا من مثل هذا الموقف مايدعونه عظة أو عبرة . أتعدنى بذلك ؟

ريكاردو : أعدك .

الرجل : شكرا . طاب مساؤك يا ريكاردو ... أندرسون .

(يخرج . النور يعود إلى حالته الطبيعية فى المسرح . ريكاردو يلقى نظرة على العقد ، ثم يكوره فى يده ويلقى به على المائدة حينما يحس بحركة تدل على فتح الباب . تعود إستيلا وقد بدا عليها إرهاق من قام ببذل مجهود كبير فى تأدية عمل) .

(ريكاردو وإستيلا)

ريكاردو : هل هناك أمل ؟

إستيلا : ومن يدرى ؟ إن حرف الصخرة قد شق صدره كما لو كان خنجرا ، ولكنى كريستيان يبدو أقوى من الصخر نفسه . إنه الآن قد استعاد هدوءه وطمأنينته ، وفى وسعه أن يستقبل أى شىء : الحياة أو الموت (تجلس فى تهالك وتثاقل) لم أكن أعلم أبدا أن كلمة واحدة يمكن أن يكون لها مثل هذه القوة .

ريكاردو : كلمة الغفران ؟

إستيلا : نعم ... الغفران . إنها تبدو لأول وهلة كما لولم تكن شيئا مذكورا ، ولكن أى معجزة جعلها الله تكمن فى داخل هذه الكلمة ! لقد كنت أعتقد أننى لن أكون قادرة على أن أفوه بها ، ولكنى ما كدت ألقى بها من بين شفتى كما تطرح الشجرة ثمرة ناضجة حتى شعرت بأنها لم تعد السلام إلى كريستيان فحسب ، بل أحسست بأننى أيضا قد أصبحت أنظف وأقوى مما كنت . لقد أزالت عن قلبى كل هم وفرجت عن صدرى كل غصة .

(يسمع صوت نفير الباخرة من جديد ، تنهض إستيلا من مقعدها فى فزع مفاجىء) النفير مرة أخرى ! ما الذى تنتظر ؟ إنها باخرتك توشك على الإقلاع .

ريكاردو : وإلى أين سأتوجه ؟ لقد عرفت الآن أننى فقدت كل ثروتى . ليس هناك بلد يدعونى إليه ولا صديق واحد ينتظر منى العودة .

إستيلا : ولكن حياتك كلها هناك !

ريكاردو : أنصتى إلى يا إستيلا . إننى لست من أولئك الغرباء الذين يقدمون إلى هنا ليشتروا الأحلام بالنقود .

إننى الآن رجل لاثروة لديه إلا يداه ، تماما كأى إنسان يخرج إلى عالم الأحياء . أنا واحد من أهل قريتك . فدعينى أعمل إلى جوارك .

إستيلا : هنا ؟ (وهى لاتكاد تصدق مايقول) ، لا تخادع نفسك . أتظن أنك قادر على التعود على مثل هذه الحياة الفقيرة ؟

ريكاردو : ليس هناك مالا يقدر عليه الرجل حينما تنظر إليه امرأة . ألا تعرفين ذلك ؟

إستيلا : نعم . أعرفه . فهذه هى قوة المرأة العظمى .

ريكاردو : القوة الوحيدة القادرة على أن تخرج إلى مياه البحر كل مراكب الصيد وتزرع فى الحدائق أشجار الورد من جديد (يأخذ يديها بين يديه) إستيلا ... ماليديك باردتين كالثلج ! ... إنك ترتجفين .

إستيلا : ليس بشىء . إن أول يوم مشمس فى الموسم كثيرا ماتعقبه ليلة شديدة البرد . لنشعل الموقد معا . (تنظر إلى العقد الملقى على المائدة) أمحتاج أنت الى هذه الورقة ؟

ريكاردو : لا ... لم يعد لى بها من حاجة .

إستيلا : شكرا . (تضعها على فوهة المصباح حتى تشتعل ثم تجثو على قدميها لتشعل الموقد . ريكاردو ينحنى إلى جوارها ليساعدها . يسمع نفير الباخرة ثلاث مرات متقطعة مؤذنة بالإقلاع) .
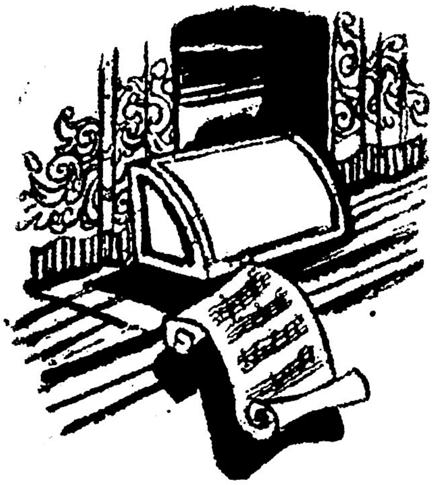
ستار